في فمي ماء كثير[1]

عنوان هذه المقالة جزء من بيت ورد في قصيدة للشاعر المشهور نزار قباني. وهو شاعر أُلهم تطويع الكلمة بشكل يندر مثاله. ومع تلك الصفة التي وُهِب إياها فإن شعره لم يَخلُ من هفوات تبرهن على أن لكل جواد كبوة. ووجود هفوات عند شعراء عمالقة أمر يعرفه من هم أهل للحكم على الشعر جيده وضعيفه.

وقصيدة نزار المشار إليها ألقيت في مهرجان المربد يوم كان العراق عراقاً لم يَحلَّ به ما حَلَّ من كوارث ونكبات. وعنوان تلك القصيدة " إفادة في محكمة الشعر". وتُعدُّ من أروع ما كتبه ذلك الشاعر؛ بل تُعدُّ من عيون الشعر الحديث والمعاصر. ومطلعها:

مَرْحباً يا عراق...

جئت أُغنِّيك

وشَيء من الغِنَاء بُكاء

تُرَى لو كان ذلك الشاعر الآن حياً، ورأى ما حَلَّ بعراق أُمَّته، هل سيقول:

وشَيءٌ من الغِنَاء بُكاءُ؟ أَبقي شَيء للغِنَاء لا للبُكاء؟

ومن تلك القصيدة:

---

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ١٨/ ١/ ١٤٣١هـ الموافق ٤/ ١/ ٢٠١٠م.

في فَمي يا عِراقُ ماءٌ كَثيرٌ كيف يشكو من كان في فيه ماء؟

أجل؛ ما أكثر الأفواه الممتلئة ماء في جموع أُمَّتنا المغلوبة على أمرها! لقد رأى الجميع كيف بدأ العام، الذي انتهى قبل أيام قليلة، وكيف انتهى. رأى الجميع كيف بدأ ذلك العام باستمرار عدوان صهيوني بشع على غَزَّة؛ وهو العدوان الذي باركه وأَيَّده تأييداً قوياً واضحاً متصهينون في الغرب عامة وفي أميركا خاصة. ورأى الجميع، أيضاً، كيف كانت مواقف بعض الزعماء من أُمَّتنا تجاه ذلك العدوان الهمجي البشع بين غير مكترث بما كان يُرتكَب من جرائم صهيونية فظيعة وفَرِح في سرِّه - وربما مُتواطئ من خلف الستار مع ذلك العدوان ومُحرِّض عليه - أملاً في أن تكون نتيجته إخماد أَيِّ حركة مقاومة للاحتلال الصهيوني ليبقى مرتاحاً في كرسي السلطة ومهيمناً عليه. ولَعلَّ مما يدل على ذلك أن هؤلاء المتواطئين، أو المُحرِّضين، لم تكن لديهم الشجاعة لِيردُّوا على أقوال قادة الصهاينة، الذين أشاروا إلى ذلك التواطؤ أو التحريض بوسائل متعددة.

أما شعوب أُمَّتنا فقد اتَّضح جَليّاً أن أصوات الذين ما زالت تَدبُّ فيهم بقية من حياة وحياء، هنا أو هناك، لم تكن إلا أصواتاً غير مسموعة أو مُؤثِّرة. ذلك أنها كانت بمثابة أصوات في مقبرة أشرب من هم فيها كؤوس الذل والمهانة حتى الثمالة. ومَرَّت أيام العام الثقيلة وطأة ولسان حال كل رجل وامرأة من هذه الأُمَّة يقول:

كُلُّ يومٍ يَمرُّ يَزداد ذُلِّي في فؤادي تَمَكُّناً ورُسوخاً
وإذا حَرَّك الزَّعيم عَصاه رَكَعَ الكل للزَّعيم رُضوخاً
رَحِم الله مَوقِفاً كنت فيه رَافعَ الرأس عِزَّة وشُموخاً

وقرب نهاية العام المنصرم، الثقيل وطأة، المليء ذُلًّا وإذلالاً، جاء رَدُّ

الغرب على دعوات أصحاب النوايا الطيبة من المسلمين - كما تَوقَّع كاتب هذه السطور وأمثاله - صريحاً واضحاً؛ وهو رفض تلك الدعوات بطرق مختلفة. ومن هذه الطرق ما حدث من تصويت في سويسرا - بلد البنوك المودع في خزائنها كثير من الأموال العربية السرِّية، التي يَعرف من يَعرف كيف جمعها أصحابها الأبطال الشرفاء ولا يعرف الكثيرون ذلك - ظهر فيه أن أغلبية شعب تلك البلاد تعارض بناء منائر للمساجد فيها. وأظهر، أيضاً، استفتاء للرأي العام الفرنسي أن الكثيرين من الفرنسيين يعارضون بناء مساجد في بلادهم. ومن المُرجَّح أنه لو حدث استفتاء في بلدان أوروبية غير سويسرا وفرنسا لكانت النتيجة مشابهة لما حدث في هذين البلدين. ذلك أن الأوروبيين يَظلُّون غير معترفين بنبي الإسلام وإن تظاهروا بأنهم مع حرية الأديان.

ولم يقف الأمر عند ما سبق ذكره، وحَيِّز هذه المقالة لا يسمح بالإشارة إلى أمثلة عديدة تبين تَجمُّع أعداء المسلمين ضد أُمَّتنا المسلمة. ويكفي دليلاً على ذلك ما هو حادث في أفغانستان من جنود أولئك الأعداء مرتكبين يوماً بعد آخر جرائم بشعة ضد الأبرياء. ولهذا تكفي الإشارة باختصار إلى ما حدث في العام الذي انتهى من ظهور عداء الزعامات الغربية؛ وبخاصة بريطانيا، تجاه قَضيَّة غَزَّة بالذات. فقد وقف زعماء تلك الدولة ضد محكمة بريطانية أصدرت أمراً، أو حكماً، باعتقال مجرمة الحرب الصهيونية، وزيرة خارجية الكيان الصهيوني السابقة، إن هي أتت إلى بريطانيا، وصَرَّحوا بأن تلك المجرمة مُرَحَّب بها دائماً في بلادهم. بل إن كبيرهم، خليفة بلير، الذي عرف العالم كله - بمن فيهم شعبه - كذبه الذي استُخدِم من بين الذرائع القذرة للعدوان على العراق واحتلاله، صَرَّح بأن الكيان الصهيوني لو أَعاد الهجوم على غَزَّة لأيَّده كلَّ التأييد. على أن هذا الموقف غير مستغرب من قادة دولة هي التي مَهَّدت

الطريق بوسائل مُتعدِّدة لإنشاء ذلك الكيان العنصري على أرض فلسطين.

وأما ما حدث عند نهاية ذلك العام المنصرم، الحافل بالنكبات المتتالية لأُمَّتنا العربية، من توجيه بعض زعماء العرب أسلحتهم المختلفة التنوُّع؛ مادياً ومعنوياً وإعلامياً، في وجوه بني جلدتهم وبناتها فهو الأمر الأَشدُّ وطأة، الذي لا يدانيه سوءاً ورداءة أمر سواه. ومما يؤسف له أَشدَّ الأسف أن مُجرَّد الحديث عن هذا بصراحة قد أصبح غير مسموح به في بعض أقطار أُمَّتنا. وعدم السماح به يوحي بأن من لا يسمحون به مُؤيِّدون إلى حَدٍّ ما لما يحدث. وما للمرء - وهو يشاهد ما يحدث من أولئك الزعماء وما يتخذ من مواقف تجاه الحديث عنه بصراحة - إلا أن يعيد قول بيت الشاعر نزار قباني المشار إليه سابقاً وإن بتغيير كلمة فيه قائلاً:

فِي فَمِي يا صِحابُ مَاءٌ كَثيرٌ كَيف يَشكو من كان في فيه مَاء؟

بين يدي الخطاب المنتظر[1]

كل أُمم العالم مَرَّت بمراحل ضعف في تاريخها. وربما كانت أسباب ضعفها مادية أو معنوية. وقد يُتغلَّب على الأسباب المادية بالإرادة القوية والجهد المخلص، لكن الصعوبة تكون أَشدَّ عندما تكون الأسباب معنوية. في عالمنا العربي لَخَّص الشاعر نزار قباني جانباً من جوانب وضع أُمَّتنا بعبارة واضحة: " لقد لبسنا قشرة الحضارة". أُمَّتنا حَقَّقت الكثير من مظاهر الحضارة المادية؛ بناياتٍ وتكديسَ أسلحة وما جدَّ من صناعة رفاهٍ لم تسهم هي أَيِّ إسهام في إنتاجها. لكنها - في أكثر أقطارها - لم تستطع خلق مواطنة ولم تزرع في نفس الفرد ما يطمئنه على حاضره؛ ناهيك عن مستقبله ومستقبل أولاده.

في مقابل ما تَحقَّق من إنجازات مادية ضعفت - إن لم يُقَل تلاشت - الإرادة؛ سواء على مستوى القيادات أو على مستوى أتباع هذه القيادات. وإذا ضعفت الإرادة، أو تلاشت، لدى أُمة من الأمم فخسارتها فادحة. ومهما بدت مظاهر أشكال وضعها بَرَّاقة فإن هذه المظاهر ينبغي ألَّا تَغرَّ من يراها؛ امتثالاً لنصيحة ذلك الشاعر الشعبي الذي قال:

لا يغرِّك صَنْقَل الساعه البَلا جا من بَراغيها

منذ ثلاثة عقود، على الأقل، وُجِد من زعماء أُمَّتنا من زَيَّن له رأيه غير المُوفَّق أن يَتفوَّه بالقول: إن حَلَّ قضايا هذه الأمة؛ وبخاصة قَضيَّة

(١) المراد بذلك خطاب الرئيس الأميركي، باراك أوباما، الذي ألقاه في جامعة القاهرة.

فلسطين، ٩٩٪ منه في يد الولايات المتحدة الأميركية. ولم يكن مستغرباً أن يرى ذلك الزعيم، ويُصرِّح، بأن أُمته؛ قياداتٍ وشعوباً، أفلت من يديها ٩٩٪ من حَلِّ قضاياها لتصبح في يدي دولةٍ مَنْ تَدبَّر مواقف إداراتها المتعاقبة؛ جمهورية أو ديمقراطية، من قَضيَّة فلسطين يدرك أنها لم تخرج عموماً عن مواقف زعامات الكيان الصهيوني المتتابعة، بغض النظر عن أسماء أحزاب حكامها. فانهزامية الإرادة إذا احتلَّت النفوس جاءت بكل ما هو غريب وعجيب بما في ذلك تجاهل قدرة الأُمة على الحركة.

أجل. من منطلق ذلك الزعيم وأمثاله - وما أسرع تكاثرهم في الآونة الأخيرة! - لا بد أن يوجد من يَتلهَّفون إلى اليوم الذي يلقي فيه الرئيس الأميركي خطابه من القاهرة إلى المسلمين تَلهُّف من يَتلهَّفون إلى مجيء المهدي المنتظر، الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ما مُلئت ظلماً وجوراً. ولَعلَّ نظرة سريعة إلى بعض البوادر التي لاحت في الأفق بعد مجيء هذا الرئيس إلى كرسي الرئاسة في أميركا - بكل ما يحمله من صفات الذكاء والألمعية - تساعد في تحديد المدى الذي يستحسن أن تدور التخمينات حوله. وقبل الإشارة المختصرة إلى تلك البوادر لابد من القول: إن هناك شبه إجماع لا عند أُمَّتنا فحسب؛ بل عند أكثر الأمم الأخرى أيضاً، بأن إدارة بوش الابن السابقة كانت أسوأ إدارة أميركية؛ عجرفة قُوَّة وارتكاب جرائم بَشعة؛ وبخاصة ضد العرب والمسلمين، وأن أركان مجرمي حربها من أمثال تشيني ورامسفيلد لم يجدوا من أَبدى تقديراً لهم إلا من جعل الله على أبصارهم غشاوة. ذلك أن أصوات حق من داخل أميركا نفسها أدانت تَصرُّفات أولئك المجرمين؛ بل وُجِد بين أصحاب تلك الأصوات من طالبوا بمحاكمتهم على أنهم قاموا بأعمال ضد الإنسانية. وما تدمير العراق، وارتكاب الجرائم البشعة في سجن أبو غريب وأمثاله، ومعتقل جوانتانامو، إلا أمثلة لتلك الأعمال لأنهم كانوا المسؤولين عنها بالدرجة الأولى.

في الحملة الانتخابية التي أتت بأوباما إلى سُدَّة الحكم الأميركية كان من الوعود التي وعد بها إغلاق معتقل جوانتانامو.. رمز الغطرسة والهمجية وانتهاك حقوق الإنسان التي يتشدَّق بها الأميركيون في كل مكان، والوعد بأن ينال من ارتكبوا جرائم التعذيب ما يستحقونه من عقاب. أما الوعد بإغلاق ذلك المعتقل.. الخزي.. فقد يحدث، والله أعلم بمصير من عانوا - وما زالوا يعانون - فيه من ظلم وتعذيب طوال السنوات الماضية. كيف سيكون ذلك المصير؟ هل سيكفِّر من ظلموهم عن سيئاتهم بتعويضهم عما ارتُكِب ضدهم من جرائم؟ وأما الوعد بمعاقبة من ارتكبوا الجرائم البشعة بحق الآخرين المظلومين فوعد لا يختلف عن مواعيد عرقوب.

وماذا عن أفغانستان وإدارة الرئيس الأميركي المنتظر خطابه؟ لندع قَضيَّة ارتكاب جريمة احتلال ذلك البلد بزعامة أميركا ومن اتَّبعها من الغاوين في الغرب والشرق أجمعين. ففي زمان العجائب لم يعد احتلال غير المسلمين لبلاد المسلمين ممقوتاً؛ بل كاد يصبح تنافس الزعامات المسلمة على إنشاء قواعد عسكرية للمحتل الأجنبي أمراً يثير الإعجاب لا العجب. لكن ماذا عن الجرائم المرتكبة من قِبَل القوات المحتلة لأفغانستان ضد المدنيين؟ هل تَوقَّفت في عهد الرئاسة الأميركية الجديدة؟ حتى الرئيس الأفغاني، الذي لولا وجود المحتل لما بقي في الرئاسة ساعة من نهار، كان ممن اشتكى من قصف المحتلين بزعامة الأميركيين لأولئك المدنيين.

وماذا عن باكستان؟ وما أدراك ما باكستان؟ لقد آن الأوان لدى السادة الأميركان أن تتحطَّم تلك الدولة كما حُطِّمت العراق وإن اختلفت طريقة التحطيم. زعامة ذلك البلد - أرشدها الله إلى العمل لمصلحة بلدها - احتجَّت على ما ترتكبه القوات الجوية الأميركية من قصف للمدنيين من

أهلها منتهكة سيادتها. وكان أن توصلت إلى صلح مع الفئة المُسمَّاة بطالبان باكستان من بين بنوده وقف المواجهة، والسماح بتطبيق الشريعة في الجهات التي تسيطر عليها تلك الجهة. وبغض النظر عن تحديد من هم على صواب ومن هم على خطأ فإن سادة أميركا لا يمكن أن يقبلوا شيئاً اسمه الشريعة الإسلامية؛ وبخاصة في تلك المنطقة من العالم، حيث يعني ذلك - فيما يعني - رفض المهادنة مع أعداء المسلمين. فكان أن أجبرت الزعامة الباكستانية على الإقدام على ما أقدمت عليه، وظهر من نتائج ذلك ما ظهر من العواقب والنذر. والتحطيم جار، وإن سالت من الدماء أنهار.

وبالعودة إلى قَضيَّة فلسطين، التي ما زالت قَضيَّة أُمَّتنا الأساسية - وإن لم تَعُد عند بعض زعماء هذه الأُمة كما كانت - هل تَغيَّر موقف الرئاسة الأميركية الجديدة حتى الآن من هذه القَضيَّة؟ الدعوة إلى إقامة دولة فلسطينية إلى جانب الدولة الإسرائيلية دعوة كان آخر من دعا إليها من رؤساء أميركا السابقين الرئيس بوش الابن رغم أن إدارته كانت أسوأ إدارة بالنسبة لأُمَّتنا؛ عربية وإسلامية. بل كانت تلك الإدارة أُمَّ البلاوي. والدولة المبهمة المُنادَى بقيامها لا يمكن أن تُفسَّر إلا وفق ما ورد في اتِّفاقية أوسلو، ونُفِّذ على أرض الواقع؛ مُجرَّد كانتونات مَهمتها الأَساسية أن تكون حارسة للكيان الصهيوني المحتل ضد أَيِّ مقاومة للاحتلال. أما المطالبة بإيقاف بناء المستوطنات، أو البؤر الاستعمارية، فمطالبة سبق أن أبداها رؤساء أميركيون سابقون. لكن هل تَوقَّف البناء؟ أما المطالبة بإزالة ما بُنيَ من بؤر استعمارية في الأرض المحتلة عام ١٩٦٧م فأمر لم يف به من سبق أولئك الرؤساء. ومن شبه المؤكد أن الرئيس الجديد لا يريد، أو لا يستطيع، أن يكون بدعاً بينهم. وماذا عن تهويد القدس؟ الجميع صُمٌّ بُكْمٌ عُمْي. والصَّمم والبُكْم والعَمَى أعراض انتقلت عدواها -

مع الأسف الشديد - إلى أكثر زعماء أُمَّتنا. أما حق عودة الفلسطينيين إلى وطنهم المحتل فَتحوَّل بقدرة صهيونية مدعومة بالتصهين إلى حق لكل من قال: إنه يهودي أن يأتي للمشاركة باحتلال أرض فلسطين وقهر أهلها لتكون صافية العرقية.

لا أظن الخطاب المنتظر المتلهِّف إلى يومه المنتظر سَيتضمَّن المطالبة بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة لا بالنسبة لإنهاء احتلال الصهيوني للأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م؛ بما فيها القدس، ولا بإزالة المستعمرات، أو المستوطنات، منها، ولا بالنسبة لحق عودة اللاجئين الفلسطينيين وتعويضهم عما فقدوه. على أن أُمَّتنا، الفاقدة الإرادة؛ زعاماتٍ وشعوباً، سَيتَّضح أنها سترضى بكلام مسموع لا يُسمن ولا يُغني من جوع. لقد أصبحت مثل أُم الحُلَيْس التي عَبَّر عن قناعتها بالشيء القليل ذلك الناظم الذي قال عنها:

أُم الحُلَيْس لَعجوزٌ شَهْرَبَه تَرضى من اللَّحمِ بِعظْم الرَّقَبَه

قراءة في كتاب

بنو إسرائيل في القرآن والسنة[1]

أرَادت الإدارة الأميركية السابقة.. إدارة بوش المُتصهينة.. أن تخلق في منطقتنا ما سَمَّته الفوضى الخَلَّاقة. وهذا جزء مما أطلقت عليه مشروع الشرق الأوسط الكبير. وهو في حقيقة الأمر أَمركة منطقتنا بمختلف الوجوه. وهذا المشروع الخبيث الأهداف من جوانبه ما لم ير النور، ومنها ما يَتحقَّق. يدرك ذلك من يدركه ويخفى عن آخرين يَقلُّون أو يكثرون.

في التزامن مع ذلك كثر المفتون في القضايا الشرعية كما كثر المفتون في القضايا السياسية. ومن المعلوم أن الإفتاء في القضايا الشرعية له شأن خطير. وكثرة المفتين؛ لا سيما غير المؤهلين للفتوى، تجعل الناس في حيرة من أمورهم. وكنت قد أشرت إلى ذلك في بيت من قصيدة عامية قائلاً:

كلّ من كَوَّرْ على راسِه عمامه قال: أَنا المفتي وانا قاضي الشريعه

وفي بعض الأحيان - وإن تكن قليلة - تأتي الفتاوى الشرعية مُسيَّسة، فتكون مخالفة للحقيقة وبَلاءً على الأمة. ومن فتاوى مؤسسة دينية عريقة ما نَسَبت حاكماً إلى البيت النبوي، والمفتون قبل غيرهم يعلمون أن تلك

---

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ٢٥/ ١/ ١٤٣١هـ الموافق ١١/ ١/ ٢٠١٠م.

الفتوى افتراء. ومن الفتاوى فتاوى مُضلَّة زَيَّنت لشباب الأُمَّة ما أوقعهم في مهالك لأنفسهم وأوطانهم وأُمَّتهم.

أما بعد:

فهذه القراءة فيها إشارات مختصرة جداً إلى مسائل في كتاب يستحق أن يقرأ قراءة تَأمُّل للمقارنة بين جَوِّ الزمن الذي كُتِب فيه وجَوِّ الزمن الذي يعيشه كاتبه - ونعيشه معه - الآن. وعنوان هذا الكتاب - كما ذُكِر في عنوان القراءة: **بنو إسرائيل في القرآن والسنة**، من تأليف الشيخ محمد سيد طنطاوي. وكان رسالة قَدَّمها كاتبها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م. ثم طُبِعت، ونُشِرت كتاباً، بعد ذلك بعامين. وهو من جزأين: بدأ الجزء الأول منه بإيراد تحذير الرئيس الأميركي فرانكلين من اليهود، فَمقدَّمة بَيَّن فيها باختصار ما يشتمل عليه كل فصل من فصول الرسالة الثمانية، وجُعِلت الخاتمة للحديث عن الغزو الصهيوني لفلسطين وقيام كيان الصهاينة فيها.

وفي الفصل الثالث من الكتاب تَحدَّث الشيخ طنطاوي عن مسالك اليهود لكيد الإسلام والمسلمين؛ مثل محاولتهم الدس والوقيعة بينهم، ومحاولاتهم صَدَّهم عن دينهم، وتحالفهم مع المنافقين والمشركين ضدهم، وإيذائهم للنبيِّ، ﷺ، ومحاولاتهم قتله.

أما الفصل السادس من الكتاب فَتحدَّث فيه كاتبه عن رذائل اليهود كما يُصوِّرها القرآن الكريم؛ مثل نقضهم العهود والمواثيق، وكراهيتهم الخير لغيرهم بدافع الأنانية والحسد، وتحريفهم الكلم عن مواضعه. وأما الفصل السابع فعن دعاوى اليهود الباطلة وكيفية رَدِّ القرآن الكريم عليها؛ مثل دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: إن ذنوبهم مغفورة لهم، وقولهم: " يد الله مغلولة". ومما ذكر في هذا الفصل نماذج من

إفسادهم في الأرض. ومن هذه النماذج القتل والاغتيال، والتجسس، وإثارة الفتن والحروب والثورات؛ ومن ذلك أنهم أوقدوا الحربين العالميتين وهم وحدهم الذين استفادوا من ورائهما المال الوفير، وأن العدوان الثلاثي على مصر كان من تدبيرهم، وهم الذين أُعدُّوا للثورة الشيوعية، سنة ١٩١٧م عُدَّتها، وتَولَّوا زمام الحكم بعد نجاحها؛ إذ كان المكتب الشيوعي مُكوَّناً من سبعة عشر عضواً منهم أربعة عشر يهودياً وثلاثة من أصول يهودية زوجاتهم يهوديات. وهم الذين وراء إنشاء الحركة الماسونية، كما أنهم مُشيعو الرذائل والفواحش. ومما أورده الشيخ، هنا، قول أحد زعماء اليهود، أوسكار ليفي: " نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه ومُحرِّكي الفتن فيه وجَلَّاديه".

على أن من أَهمِّ ما اشتمل عليه كتاب الشيخ طنطاوي هو خاتمته، التي تَحدَّث فيها حديثاً مفصلاً عن " فلسطين ومراحل الغزو الصهيوني لها". ومما تَحدَّث عنه كلمة الصهيونية، التي قال: إن من أهدافها إعادة بناء معبدهم المُسمَّى هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى المبارك. ومما تَحدَّث عنه، أيضاً، في الخاتمة تَطوُّر الحركة الصهيونية؛ نشأة فكرية وتطبيقاً عملياً. ومما أشار إليه قيام مجلس ينتخبه اليهود المقيمون في خمسة عشر بلداً من بلدان مختلفة أغلبها من أوروبا، تكون قراراته مقبولة من الجميع، ويُؤدِّي إلى اتفاق مع فرنسا ليكون هناك وطن لليهود يمتد من "إقليم الوجه البحري من مصر مع حفظ منطقة واسعة المدى يَمتدُّ خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر." ومما تَحدَّث عنه الشيخ جهود هرتزل، وموقف السلطان عبد الحميد النبيل من تلك الجهود، ودفعه ثمن ذلك الموقف بعزله عن الحكم، وكون واحد من بين الثلاثة الذين سَلَّموه قرار العزل يهودياً اسمه قره صو أفندي.

ثم تَتبَّع الشيخ طنطاوي ما قامت به بريطانيا، رَبَّة المكر والخداع، من جهود جبارة خبيثة لتمكين الصهاينة من السيطرة على فلسطين، وما قام به المجاهدون أمثال الشيخ عز الدين القسام من أعمال بطولية واكبها أشبه ما يكون بخذلان من بعض زعماء العرب. ثم ذكر ما قام به المسؤولون البريطانيون من تسليم بلدان وأمكنة فلسطينية؛ واحدة بعد أخرى، مع ما كان فيها من عتاد وأسلحة للصهاينة مَكَّنتهم من الاستيلاء على كثير من أراضي فلسطين؛ مرحلة مرحلة.

وفي ختام الخاتمة أشار الشيخ طنطاوي إلى أسباب كارثة فلسطين؛ ومنها :

١- ضعف الوازع الديني في نفوس الكثيرين من المسلمين.

٢- الغفلة الشديدة عن تَعرُّف مواطن الخطر المحيط بالأُمة، واغترار بعض المسؤولين العرب بخداع البريطانيين، الذين أوهموهم أن اليهود لن ينالوا من فلسطين سوى منطقة صغيرة، وحملوهم على إبعاد العناصر المؤمنة المخلصة عن الاشتراك في الدفاع عن فلسطين بحجة أنهم مغالون وبعيدون عن الحكمة والكياسة.

٣- قِلَّة الجهود المادية والمالية المبذولة في سبيل بقاء فلسطين عربية إسلامية.

٤- تَفرُّق قيادات العرب وسياساتهم المتخاذلة المُتردِّدة.

٥- توقيع الهدنتين الأولى والثانية بين العرب واليهود نتيجة ضغط بريطانيا وأميركا على بعض الدول العربية.

ولكي تستعاد الحقوق يرى الشيخ طنطاوي أنه يجب :

١- الإيمان بأن حرباً فاصلة ستقع بين المسلمين واليهود وسيكون النصر فيها للمسلمين.

٢- الإيمان بأن الأيام دول، وأن تدارك ما فاتنا ممكن إذا تَحلَّينا بالعزم واتِّخاذ الوسائل الكفيلة بالانتصار.

٣- توحيد قيادة المعركة وتسليمها لأيد أَمينة مخلصة.

٤- بذل قصارى الجهد في التذكير بقَضيَّة فلسطين، وتدريسها في المدارس والجامعات.

٥- الوقوف من الدول التي ناصرت الصهيونية موقفاً قوياً حاسماً، واستعمال الأسلحة المتنوعة في صرفها عن مناصرتها الباطلة لليهود.

٦- العمل على تقوية الفدائيين الفلسطينيين من كل النواحي، واختيارهم من العناصر المأمونة والمؤمنة بِربِّها ودينها ووطنها، وإمدادهم بما يجعلهم يستطيعون أن يزلزلوا كيان الصهيونيين عن طريق حرب العصابات.

٧- خوض معركة فلسطين المقبلة على أساس من الجهاد الديني لأن فلسطين بلد إسلامي مُقدَّس؛ وهي ملك لجميع المسلمين، وواجب الذود عنها فرض على كل مسلم على وجه الأرض.

أما بعد كل ذلك:

فإن الكتاب، الذي أُشِير باختصار إلى مسائل منه كان من كتابة الشيخ محمد سيد طنطاوي قبل خمس وأربعين سنة هجرية. وحين كتبه كان سعياً منه للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر، الذي شاء الله أن يكون المُتربِّع على كرسي مشيخته الآن[1]. ومن أراد أن يَتأمَّل كما فعلت فقراءته للكتاب نفسه ستكون أكثر نفعاً. اللهم ثَبِّت قلوبنا على الحق.

---

(١) انتقل إلى رحمة الله في الرياض صباح يوم الأربعاء ٢٤/ ٣/ ١٤٣١هـ الموافق ١٠/ ٣/ ٢٠١٠م.

أَهُوَ عَامٌ فيه تُصفَّى القَضيَّة[1]؟

المراد بكلمة " القَضيَّة" في هذه المقالة قَضيَّة فلسطين. وكل الزعماء العرب؛ صادقهم وكاذبهم، يقولون: إنها قضيتهم.. قَضيَّة أمتهم الأولى. ولقد ظهر من الأدلة العملية ما يميز الصدق من الكذب، وإن كانت هناك خفايا قد تظهر في يوم من الأيام وقد تبقى إلى الأبد خفية. وكما يقول أولئك الزعماء ذلك القول بالنسبة لقَضيَّة قومية الطابع طرحاً إعلامياً يقول زعماء مثل ذلك بالنسبة لقضايا وطنية قطرية. وكنت قد أشرت إلى هذا في أبيات من قصيدة حول الحرب الأهلية في لبنان. وما حدث - وما زال يحدث - في أقطار عربية غير لبنان ليس ببعيد في بعض جوانبه عما حدث في لبنان. وهذه الأبيات كما يأتي:

كلُّنا في الهمِّ أَشلاء مآسٍ يَعربيَّه
أَيّ قلبٍ لم تُمزِّقه من الحُزْن شَظيَّه؟
قَهقهات الموت في بيروت روحٌ هَمجيَّه
حَرّك الشيطان في أَرجائها أَلف سَريَّه
وسيوف العُرْب تَجتزُّ رِقاباً عَربيَّه
لم يَدَعْ بَتَّارها شيخاً ولم يترك صَبيَّه
أَيُّهم لبنان في وجدانه أَسمى قَضيَّه؟
كلُّهم يقتل باسم الشعب والشعب الضحيَّه

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ٣/ ٢/ ١٤٣١هـ الموافق ١٨/ ١/ ٢٠١٠م.

وقبل ثلاثة شهور كتبت مقالة عنوانها: " لاءات السلطة الثلاث". وبدأتها بالإشارة إلى أن هناك ثلاث لاءات مشهورة حول قَضيَّة فلسطين ظَلَّت مُقدَّرة كل التقدير في ضمائر المخلصين من أُمَّتنا العربية، الذين لا يقبلون الواقع المبني على ظلم. وكان عدم قبول الواقع الظالم هو ما بَيَّنه الملك فيصل، رحمه الله، للرئيس ديجول عندما قال له هذا: إن إسرائيل قد أصبحت أمراً واقعاً فلا بد من الاعتراف بشرعية وجودها؛ إذ أجابه الملك بقوله: يا فخامة الرئيس لو قبلتم بالأمر الواقع لمجرد أنه أمر واقع لَظَلَّت فرنسا تحت الحكم النازي الألماني. والواقعية - وإن كانت ظالمة - هي ما قبله عدد من زعماء العرب المستسلمون، وينادي به من ينادون من الكتاب المنخدعين أو المتجاهلين للحق ومنطق التاريخ.

كانت تلك اللاءات الثلاث المُقدَّرة هي ما تَقرَّر في مؤتمر القمة العربية في الخرطوم عام ١٩٦٧م؛ وهي: لا مفاوضات مع دولة الصهاينة المغتصبة، ولا اعتراف بشرعية وجودها على الأرض العربية، ولا سلام معها. وأشرت في تلك المقالة إلى أن تلك اللاءات الثلاث المُقدَّرة أُصِيبت؛ واحدة بعد أخرى، بهشاشة العظام إلى أن وافاها الأجل المحتوم. وكانت بداية تلك الهشاشة قد حدثت عند نهاية حرب ١٩٧٣م، التي برهن فيها المقاتل العربي على الجبهتين المصرية والسورية على عظمته؛ بسالة وعزماً، لكنها انتهت النهاية التي يعرفها الكثيرون مع الأسف الشديد.

ثم جاء انكسار العمود الفقري من جسد أُمَّتنا نتيجة تلك الهشاشة بالعظام بخروج مصر العظيمة - بكل ما لها من ثقل مادي ومعنوي - من ميدان المواجهة مع دولة الصهاينة باتِّفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩م؛ وهي الاتِّفاقية، التي عَدَّها عدد من زعمائهم - وقد صدقوا وهم كاذبون - أكبر انتصار لهم بعد قيام دولتهم، عام ١٩٤٨م، على أرض فلسطين. ومن

المعروف والثابت أن عدداً من رجال السياسة في مصر - بينهم وزير خارجيتها الذي كان مع الوفد المفاوض في الكامب - كانوا ضد بعض بنود تلك الاتِّفاقية، وأن الرئيس الأميركي، جيمي كارتر الراعي للمفاوضات، قد حاول أن يبدي الرئيس المصري موقفاً أقوى من الموقف الذي أبداه؛ محاولة منه أن يقتنع زعماء العرب الآخرون بما يتوصل إليه، لكن تأثير أناس مثل التهامي كان الأقوى، فحدث ما حدث.

ولم يتأخر ظهور النتائج المُضرَّة بالأُمة لانكسار ذلك العمود الفقري من جسدها طويلاً. فكان من تلك النتائج أن تَجرَّأ الصهاينة، بعد ثلاث سنوات فقط، على اجتياح لبنان والوصول إلى عاصمته بيروت حيث ارتكبت مجزرة صبرا وشاتيلا دون أن يَتحرَّك أَيُّ عضو من ذلك الجسد المنكسر عموده الفقري. وانجرَّ من انجرَّ إلى مستنقع حرب كان طرفاها المباشران العراق وإيران، وأهلكت من أهلكت من نفوس كثيرة، كما استنفدت ما استنفدت من أموال طائلة، وخَلَّفت ما خَلَّفت من أحقاد وضغائن ما تزال آثارها ماثلة للعيان. ثم جاءت فعلة صدام التي فعلها وهو من الضالين المجرمين؛ وذلك بعدوانه على الكويت واحتلالها. وكان من نتائج تلك الفعلة الضالة الإجرامية أن حطَّمت أميركا قوة العراق التي كانت - كما قال جيمس بيكر، وزير خارجية تلك الدولة حينذاك - الخطر الاستراتيجي الحقيقي على الكيان الصهيوني، وجُرَّ قادة العرب إلى مؤتمر مدريد. وبينما كان الوفد الفلسطيني في ذلك المؤتمر يُحقِّق نصراً إعلامياً ضربته القيادة الفلسطينية من الخلف بإجراء مفاوضات أوسلو، التي عجب رئيس وزراء ذلك الكيان، رابين، من ضعف الموقف الذي أبداه الفلسطينيون فيها. وبذلك وَقَّعوا على بنود اتِّفاقية اتَّضح - فيما بعد - أنها أوجبت عليهم أن يقفوا مع الصهاينة ضد أَيِّ مقاومة فلسطينية. والمتأمل فيما جرى منذ توقيع تلك الاتِّفاقية يرى ذلك رأي العين.

وما وصل إليه من وَقَّعوا على بنود اتِّفاقية أوسلو من مواقف تدمي قلوب المخلصين من أُمَّتنا لقَضيَّة فلسطين، وتشمت أعداءها بها، أمر مشاهد معروف. وقبل ثلاثة شهور أعلن أحد أقطاب السلطة الفلسطينية ثلاث لاءات جميلة في ظاهرها؛ وهي: لا تنازل عن وجوب انسحاب إسرائيل - دون ذكر أنها عدو بطبيعة الحال - من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م بما فيها القدس، ولا تنازل عن حق عودة اللاجئين الفلسطينيين؛ وهو حق أَقرَّته الأمم المتحدة، ولا اعتراف بيهودية الدولة الإسرائيلية. وهذه اللاءات الثلاث هي أَقلُّ ما يمكن أن يطالب به أركان السلطة الفلسطينية؛ وبخاصة بعد أن حُذِف من ميثاق منظمة التحرير ما حُذِف، وبعد أن آلت أمور المنطقة بعامة وأمور الفلسطينيين بخاصة إلى ما آلت إليه.

وفي كتابتي عن لاءات السلطة الفلسطينية الثلاث أشرت فيها إلى أن لاءات مؤتمر الخرطوم الثلاث المشهورة قد أصبحت أثراً من آثار أُمَّتنا عندما كان لديها كرامة ينظر إليها الكثيرون باحترام وتقدير، وسألت: هل يثبت أركان السلطة الفلسطينية أنهم لن يتنازلوا عما يُصرِّحون به الآن من اللاءات الثلاث الجديدة؟ وكانت محاولتي الإجابة عن ذلك السؤال باختصار ما يأتي:

بالنسبة للاء الأولى؛ وهي لا تنازل عن وجوب الانسحاب الصهيوني من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م، للمرء أن يسأل: هل بقي في الضفة الغربية إلا أوصال مقطَّعة يزداد فيها يومياً انتشار أورام المستعمرات الاستيطانية؟ وهل هناك من يجهل أن الصهاينة، الذي ضَمُّوا القدس رسمياً إلى دولتهم، ماضون في إكمال تهويدها؟. إن زعماء الصهاينة؛ ابتداء من هرتزل، ومروراً ببن جوريون، وانتهاء بالمتربِّعين الآن على

كرسي الحكم الصهيوني، قد أعلنوا أن ذلك التهويد هدف لا تنازل عنه، وأن معاول الهدم لا بد أن تقضي على أساسات المسجد الأقصى.

أما بالنسبة للاء الثانية؛ وهي لا تنازل عن حق عودة اللاجئين الفلسطينيين، فالمعروف أن زعماء الصهاينة - وهم الجانب الأقوى المتفرعن المتغطرس - يرفضون ذلك الحق رفضاً تاماً، وأن قادة أميركا يدعمونهم دعماً غير محدود في هذا الأمر. ومن المشكوك فيه جداً - وفق ما هو جار مشاهد - عدم استسلام الأضعف لما يريده ذلك الأقوى المتغطرس المدعوم أميركياً.

وأما اللاء الثالثة؛ وهي لا اعتراف بيهودية الدولة الإسرائيلية، فإن زعماء الصهاينة - في ضوء ما لمسوه من توالي تنازلات القيادة العربية؛ فلسطينية وغير فلسطينية - لن يتنازلوا عما أَصرُّوا عليه هم وحلفاؤهم المتصهينون في هذا الشأن.

وكان ختام تلك المقالة كما يأتي:

لقد عرف المواطن العربي كيف دُفِنت لاءات مؤتمر الخرطوم الثلاث المشهورة فهل سيعرف كيف تُكفَّن لاءات السلطة الثلاث عاجلاً أو آجلاً؟

ويبدو - وأنا أكتب هذه السطور بعد مُضيِّ ثلاثة شهور على كتابتي تلك المقالة عن " لاءات السلطة الثلاث" - أن هذه اللاءات بدأت تُكفَّن فعلاً. ولئن بقي حديث عن شيء منها قولاً غير جِدِّي ولا مُجدٍ فإن من الواضح أن التنازلات عنها بالسرعة المقصودة؛ صهيونياً وتصهيناً، قد اتَّخذ طريقه. وإذا كنت قد قلت عن العام المنصرم بأنه عام من الذل فإن مؤشرات عديدة؛ فلسطينياً منقسماً بين مُتمسِّكين باتِّفاقية أوسلو، التي من بنودها مناهضة المقاومة ومُتبنِّين لهذه المقاومة، وعربياً بين متخاذلٍ يبدو خائفاً على كرسي الحكم ومُكبَّل بإملاءات اتِّفاقيات واضحة، وغربياً

بين متصهينٍ ومسايرٍ للصهاينة والمتصهينين طوعاً أو كرهاً، كلها تدل على أن الأوضاع وصلت إلى درجة تجعل من الممكن وضع السؤال، الذي جعل عنواناً لهذه المقالة؛ وهو: " أَهُوَ عَامٌ فيه تُصفَّى القَضيَّة".

أَفَلا تُغني النُّذُر[1]؟

قَال لي صَاحبي المُؤمِّل حَلّاً ... بين طَيَّاته الحقوق مَصونه
وَطِّن النَّفس فَالبشائر لاحت ... في سَماواتِ أُمَّةٍ مَغبونه
وأَساطين قَادة الغربِ منهم ... مَنْ إذا الحق بان لا ينكرونه
أَوَ لم يُصبِحوا "عياناً بياناً" ... سَمعَ من ضِيمَ في الوَرَى وعيونه؟
قلت: كَم من مُؤمِّل يا صديقي ... أَخلف الواقع المَريرُ ظنونه!
لم أُشاهِد فيمن أَشرت إليهم ... زُعماء يَرعون ما يعلنونه
كُلُّ ما يَزعمون مَحضُ نِفاقٍ ... من نُفوسٍ بِحقدِهم مَسكونه
حُبُّ صهيون، أَو عصاه، سِلاحٌ ... زَاده قُوَّةً فَزَاد رُعونه
فِعلُهم ما يُريد طَوعاً وكرهاً ... ومُراعاةُ أَمرِه مضمونه
وقِياداتُ أُمَّتي بين غَافٍ ... عن نَوايا العِدَا وما يَرسُمونه
وزَعيمٍ قد بات كُلُّ مُناه ... أَن يَمدَّ اليمين يَرجو المعونه

أجل.

قال لي صاحبي وهو يحاورني مخلصاً ودوداً: لماذا أَنت مُتشائم عَبَّرت عن تشاؤمك بوضعك سؤالاً عما إذا كان هذا العام عاماً فيه تُصفَّى القَضيَّة الفلسطينية؟ أَلست تَرى أَن الإدارة الأميركية الحالية قد تَعهَّدت بالعمل على حَلِّ تلك القَضيَّة حَلًّا عادلاً يرضاه الطرفان الإسرائيلي والفلسطيني

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ١٠/ ٠٢/ ١٤٣١هـ الموافق ٢٥/ ٠١/ ٢٠١٠م.

ومن ورائه العربي؟ أَليست أميركا مُصرَّة على وجوب أن تكون هناك دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل؟ أليس زعماء الدول الأوروبية ينادون بوجوب حَلِّ القَضيَّة الفلسطينية (أو ما يسمونها - ويسمِّيها إعلام أُمَّتنا المنزلق وراء الإعلام الغربي والصهيوني - مشكلة الشرق الأوسط) حَلًّا سلمياً تقوم بموجبه دولة فلسطينية؟ ولماذا تُسمِّي ما قد يُتوصَّل إليه من حَلٍّ لتلك القَضيَّة، أو المشكلة، تَصفية مع ما تحمله هذه الكلمة من مدلول؟

قلت لصاحبي: إن المُتتبِّع لتاريخ الإدارات الأميركية المتعاقبة يرى أن تلك الإدارات الداعمة للكيان الصهيوني دعماً غير محدود كانت بين مُتصهينة كان لتصهينها دور مهم جداً في اتِّخاذ الموقف الذي اتَّخذته، ومطأطئة رأسها لتغلغل نفوذ الصهاينة في بلادها تغلغلاً واضحاً في مجالات حيوية داخل المجتمع الأميركي بحيث أصبحوا يَتحكَّمون - بدرجة كبيرة - في وصول من يصل إلى المجلس النيابي، كما يَتحكَّمون في قرارته. وما زال ذلك النفوذ قوياً؛ سواء كان من خلال تَبنِّي العقيدة الصهيونية أو من خلال النفوذ الصهيوني.

وتَعهُّد الإدارة الأميركية الحالية بالعمل على حَلِّ قَضيَّة فلسطين، ومناداتها بوجوب أن تكون هناك دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل، ليسا أمرين جديدين يبعثان على التفاؤل. فحتى إدارة بوش المُتصهينة السابقة كانت قد تَعهَّدت بذلك العمل ونادت بما نادت به الإدارة الحالية. لكن على أَيِّ أساس يكون ذلك التعهد بِحَلِّ القَضيَّة؟ وأَين ستقوم هذه الدولة المنادى بوجوب قيامها؟ أَبقي من أرض فلسطين شيء لدولة - بكل ما ارتكبه الصهاينة من تمزيق وتهويد للأراضي التي احتُلَّت عام ١٩٦٧م بما فيها القدس، التي يرفضون رفضاً باتاً أن تعود غير يهودية؟ وما طبيعة سيادتها؛ أرضاً وبحراً وجواً؟ ثم ماذا وراء الإصرار الصهيوني المُؤيَّد

أميركياً على أن يعترف العرب - وفي طليعتهم الفلسطينيون - بيهودية الدولة؟ وما عاقبة الاعتراف بذلك؟ وماذا عن حق العودة للفلسطينيين؛ وهو الحق الذي أَقرَّته الأمم المتحدة؟

وأما موقف زعماء الدول الأوروبية فغير مختلف في عمومه عن الموقف الأميركي اختلافاً ذا شأن. ولَعلَّ من أَدلة ذلك أن رئيس وزراء بريطانيا - مثلاً - استنكر حكم محكمة في بلاده بالقبض على وزيرة خارجية الكيان الصهيوني السابقة لكونها اشتركت بارتكاب جريمة حرب بالعدوان على غَزَّة، وقال إنه سيؤيِّد ذلك الكيان لو أعاد عدوانه عليها. أما مستشارة ألمانيا فأبدت استعدادها وترحيبها بإمداد الصهاينة بأحدث ما تنتجه ألمانيا من الغواصات. إن كل ما صَرَّح، ويُصرِّح، به الزعماء الغربيون ما هو إلا خداع ونفاق المراد منهما حقيقة إعطاء فرصة ليكسب الصهاينة مزيداً من الوقت لإكمال ما صَمَّموا على تهويده من الأراضي المُحتلَّة. وما يجري على أرض الواقع أَوضح دليل على ذلك. ومما يلفت النظر ما بَيَّنته السيول في القدس من انهيارات في المباني والشوارع نتيجة ما حفره الصهاينة من أَنفاق تحت الأرض هدفها الأكبر خلخلة أُسسِ المسجد الأقصى كي ينهار في نهاية المطاف، لِيحلَّ مَحلَّه بناء الهيكل المزعوم. أَفلا يكفي كل ما ذكر نذيراً صارخاً لمن أَلقى السمع وهو شهيد؟

عندما يُؤرَّخ ضياع فلسطين[1]

ما يشاهده المرء الآن فصل يكاد يكون الأخير من فصول مسرحية ضياع القَضيَّة الفلسطينية. هذا في نظر كاتب هذه السطور ونظر أمثاله من الذين يبنون نظرتهم التشاؤمية على أساس ما رأوه من نذر واضحة المظهر طوال نصف قرن من الزمن. أما في نظر المتفائلين فالوضع مختلف. هؤلاء كثيراً ما رَدَّدوا عبارة مُخدِّرة هي أن الصليبيين، أو الفرنجة كما تسمِّيهم المصادر الإسلامية المكتوبة في عصرهم، قد احتلوا فلسطين قرابة قرنين من الزمن، ثم أُخرِجوا منها مدحورين، وعادت تلك البلاد إسلامية عربية.

كاتب هذه السطور لن يتحدث عمَّا كان من مُقدَّمات مأساوية مَهَّدت لقيام الكيان الصهيوني العنصري عام ١٩٤٨م. ذلك أنه لم يعايش تلك المُقدَّمات معايشة يفهم شيئاً منها ويدرك أبعاده. بداية وعيه كانت بداية متفائلة انطلقت صدى لما حَقَّقه العرب من حضور في الساحة الدولية في مؤتمر باندونج، عام ١٩٥٥م، الذي نتج عنه قيام ما سُمِّي دول عدم الانحياز، والذي كان من بين نجومه البارزة مُمثِّلا مصر والمملكة العربية السعودية. وكان من ملامح ذلك العام انطلاق الفدائيين الفلسطينيين من غَزَّة بعملياتهم ضد الدولة الصهيونية؛ وهو الانطلاق، الذي يبدو أن من أهم ما أوحاه انطلاق الثورة الجزائرية العظيمة المجيدة، عام ١٩٥٤م، وتَخلُّص الأردن، بقيادة الملك الشاب حينذاك، من هيمنة القادة

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ١٧/ ٢/ ١٤٣١هـ الموافق ١/ ٢/ ٢٠١٠م.

البريطانيين العسكرية. وفي عام ١٩٥٦م كان لصمود مصر؛ قيادة وشعباً، مُؤيَّدة تأييداً قوياً من الدول العربية؛ قيادات وشعوباً، أمام العدوان الثلاثي التآمري أبلغ الأثر في النفوس المخلصة لأُمَّتها. ثم جاء قيام الوحدة بين مصر وسوريا، عام ١٩٥٨م، ليبعث مزيداً من التفاؤل في تلك النفوس. وفي ذلك العام نفسه شاهدت أُمَّتنا وفاة حلف بغداد، الذي كان في طليعة المعارضين له قادة وطننا العزيز.. المملكة العربية السعودية.

على أن تلك المؤشرات الإيجابية، التي تبعث الأمل والتفاؤل بمستقبل يتحقق في مسيرته تحرير فلسطين من المحتلين الصهاينة، لم تلبث أن أخذت تتلاشى. فلم تمض إلا شهور قليلة حتى أحكم الشيوعيون سيطرتهم على مقاليد الأمور في العراق، واستشرى سحل الناس في الشوارع بكل وحشية باركها شعراء عراقيون كبار أمثال من وعد أن يجعل من جماجم الخصوم من أبناء وطنه منافض للسجاير، ومن حَثَّ حاكم بلده على شَدِّ حبال السحل والشنق لأولئك الخصوم. ولم تمض ثلاث سنوات على قيام الوحدة بين مصر وسوريا حتى حدث الانفصال. ولا تسل عن أسباب ما حدث في العراق وفي مسيرة تلك الوحدة القصيرة العمر؛ وهي أسباب في طليعتها سوء إدارة القادة السياسية.

وتوالت نُذُر ما يدعو إلى التشاؤم، لا التفاؤل، في مستقبل يُرَى فيه تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني. وما كانت الحرب الكريهة في اليمن بين الملكيين وأنصارهم والجمهوريين وأشياعهم إلا نذيراً من تلك النُّذُر. وكانت تلك الحرب سبباً من أسباب هزيمة العرب في عام ١٩٦٧م؛ وهي الحرب التي لم ينصت المسؤولون عنها إلى صوت الخبير المخلص اللواء محمود شيت خطاب قبيل وقوعها حتى يتفادوا تلك الهزيمة، ولا تَأمَّلوا ما كتبه عنها بعد انتهائها ليدركوا ما كان لديهم من نقط ضعف. وما كان أكثرها!

ومع أن تَجلِّي قوة إرادة قادة العرب في مؤتمر الخرطوم كان باعث أمل عَضَّده نشاط مقاومة فلسطينية كانت بدايتها صائبة من علامات صوابها تنسيقها مع الجيش الأردني في معركة الكرامة، إلا أن الأمل سرعان ما بدأ يتلاشى عندما ارتكبت فصائل المقاومة الفلسطينية أخطاء كبيرة من أخطرها ممارستها أموراً هي من صميم مَهمَّات الدولة الأردنية ومسؤولياتها. فكان أن حدث الصدام الدامي بين تلك الفصائل وأجهزة هذه الدولة الأمنية والدفاعية.

وما ازدادت نُذُر عدم التفاؤل مع مرور الأيام إلا قوة ووضوحاً. فكانت نهاية حرب ١٩٧٣م، التي بدأت بانتصار عظيم، نهاية مُذلَّة قادت في نهاية المطاف إلى نجاح الصهاينة نجاحاً قال عنه كبار زعمائهم: إنه يضاهي قيام كيانهم؛ وهو خروج مصر بكل إمكاناتها العظيمة، أو إخراجها، من ميدان المواجهة مع الكيان الصهيوني؛ وذلك باتِّفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩م. وكان من نتائج تلك الاتِّفاقية أن تَجرَّأ الصهاينة على غزو لبنان عام ١٩٨٢م، وشهد الجميع ما ارتُكِب من مجازر شنيعة، ثم خروج قوات الفلسطينيين من لبنان.

على أن ما ارتكبه صدام حسين من عدوان إجرامي أحمق ضد الكويت أَدَّى إلى إضعاف العرب - وبينهم الفلسطينيون - أكثر فأكثر بحيث لم يكن أمامهم إلا المشاركة في مؤتمر مدريد، الذي اقتنعوا فيه بانسحاب الصهاينة من الأراضي التي احتلوها عام ١٩٦٧م فحسب بدلاً من المطالبة بتحرير ما احتلوه قبل ذلك العام. وبعد ذلك جاءت اتِّفاقية أوسلو خنجراً في صدر أيِّ مقاومة. وها هم أولاء قادة السلطة الفلسطينية لا يطالبون إلا بالحصول على ما بقي من أرض فلسطين؛ وهو القليل، بل إن منهم من ليس لديهم مانع في أن يكتفوا بأن يعود قسم من اللاجئين الفلسطينيين، لا كلهم، إلى فلسطين. وهكذا تَحوَّلت منظمة التحرير من

منظمة تطالب بتحرير الأرض الفلسطينية بكاملها إلى جماعة ترضى بما رضيت به أم الحُلَيْس، التي قال عنها الشاعر:

أُم الـحُـلَـيـسِ لَـعـجـوزٌ شَـهْـرَبَـه تَرضى من اللَّحم بعظم الرَّقَبه

لا أدري من سيكون منا حَيّاً ليشهد كتابة تاريخ ضياع فلسطين. أَلا لله الأمر من قبل ومن بعد.

التَّهويد مُتوَاصل والخُنوع يَزداد[1]

تهويد فلسطين كان، وما زال، هدفاً صهيونياً منذ زمن طويل. ولقد عمل الصهاينة - وما زالوا يعملون - بِجِدٍّ وتصميم وبمختلف الوسائل على تحقيقه. والعوامل المساعدة لهم على ذلك التهويد مُتعدِّدة، في طليعتها خنوع أكثرية أُمَّتنا، قادة وشعوباً، أمام أعدائها، وهو ما سنتحدث عنه في الجزء الثاني من هذه المقالة. ومن هذه العوامل- وهو مهم بدرجة كبيرة - اعتناق قسم كبير من المسيحيين العقيدة الصهيونية، ابتداء من حركة لوثر البروتستانتية التي ظهرت أواسط القرن السادس عشر الميلادي. وكان من نتائج ذلك الاعتناق أن تَسرَّبت إلى المسيحية الجديدة الأدبيات اليهودية مُمثَّلة في ثلاثة أمور: الأول أن اليهود هم شعب الله المختار، والثاني أن هناك ميثاقاً إلهياً يربطهم بالأرض المقدسة في فلسطين، والثالث - وهو مهم جداً - ربط الإيمان المسيحي بعودة المسيح المنتظرة بتجمع اليهود في فلسطين وبلوغ قوتهم مداها على أرضها.

وما إن انتهى ذلك القرن حتى بدأ البروتستانت كتابة معاهدات تنادي بأن يغادر جميع اليهود أوروبا إلى فلسطين. وهكذا تَحوَّلت نظرة هؤلاء إلى هذه البلاد - بما فيها القدس - من كونها أرض المسيح المقدسة إلى كونها وطناً لليهود. لذلك لم يكن غريباً، ولن يبدو غريباً أبداً، أن كان العامل الديني أساسياً في تحديد موقف الغرب المسيحي؛ وبخاصة الأنجلو - ساكسوني، في دعم الصهاينة دعماً غير محدود على العموم.

---

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ١٥/ ٣/ ١٤٣١هـ الموافق ١/ ٣/ ٢٠١٠م.

ولقد تناولت هذا الأمر بنوع من التفصيل في مُقدَّمة كتابي، الذي أصدرته دار المناهل اللبنانية بعنوان **كتابات عن التصهين**. وإن المرء ليعجب من وجود كُتّاب ما زالوا يُصرُّون على أن الدين لا دخل له في توجيه سياسات الدول الغربية، كما يعجب من موقف من يستنكر تسمية أحزاب في الدول الإسلامية بأسماء إسلامية، مع أن هناك أحزاباً في الغرب المسيحي تُسمَّى بالمسيحية وبعضها تحكم البلدان التي هي فيها. على أن الأهم هو أن الإدارات المتعاقبة على زعامة الولايات المتحدة الأميركية - إلا ما ندر منها - متصهينة، وجاءت مواقفها دائماً مُجسِّدة لهذا التصهين.

كانت أيديولوجية الصهاينة منذ وضع استراتيجيتهم الواضحة هي تهويد فلسطين وطمس هُويَّتها العربية الإسلامية، إنساناً وتراثاً وأرضاً. وما خبت جذوة حماستهم لتنفيذ هذه الاستراتيجية الخبيثة على أرض الواقع. وبمهارتهم الشرِّيرة استطاعوا أن يُحقِّقوا ما يريدون بدرجة كبيرة. ومن مهارتهم هذه أنهم يتوزعون الأدوار؛ فتجد فريقاً ينتقد سياسة فريق آخر علناً، لكنه يُؤيِّده ويعاضده سراً. ومما يشاهد ويُرَى أن مسيرة التهويد لم تتوقف مهما كان تَوجُّه الحكومة الصهيونية المعلن أمام العالم. واقتضام الأرض الفلسطينية قطعة قطعة وتهويدها أمران واضحان كل الوضوح. ماذا بقي من هذه الأرض؟ تهويد القدس يسير بسرعة لم تدر في أذهان الكثيرين، الذين لم يَتأمَّلوا الفكر الصهيوني حق التأمُّل. وفي الأسبوع الماضي أعلنت الحكومة الصهيونية أن المسجد الإبراهيمي في الخليل أثر يهودي؛ لذلك يجب أن يُسلب من هُويَّته العربية الإسلامية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى مسجد بلال بن رباح. وأسماء الطرق في الضفة الغربية غُيِّرت كتابتها من العربية إلى العبرية. وهلم جَرّاً.

وماذا عن الخنوع وازدياده؟

عندما سارعت جيوش بعض الدول العربية، أو فئات منها، إلى

الذهاب نحو فلسطين عام ١٩٤٨م لنجدة أهلها أمام الصهاينة، الذين مَهَّد البريطانيون المتصهينون الطريق لهم كي يحتلوا أرضها المقدسة، كانت زعامات أكثرها غير حرة الإرادة؛ بل تأتمر بأمر القوة الغربية المهيمنة على شؤونها حقيقة.

لذلك لم يَتهيَّأ للمخلصين من أفراد تلك الجيوش أن يقوموا بما كانوا يأملون أن يقوموا به. وتلا العقد الذي شهد نكبة ١٩٤٨م عقد شهد بعضاً من تباشير أمل. غير أن العقد التالي لهذا العقد شهد نكسة ١٩٦٧م، ثم أتى العقد الذي شهد زعامات عربية بدت إرادتها جلية واضحة. غير أنه اختتم بما مهّد الطريق للخضوع، وتوالى ازدياد الخضوع العربي أمام أعداء أُمَّتنا مع مرور الأيام حتى وصلنا؛ قيادات وشعوباً، إلى ما وصلنا إليه من أوضاع مزرية. لقد تَفجَّر الجميع، قيادات وشعوباً، غضباً عندما أحرق صهيوني منبر المسجد الأقصى؛ فَعُقد مؤتمر قمة إسلامية من أجل ذلك الحدث الجريمة. ومن المرجح أن ذلك الصهيوني قد فعل فعلته التي فعل بتأييد من الحكومة الصهيونية أو بعض أعضائها. لكن جرائم صهيونية أخرى ارتُكِبت بعد تلك الجريمة؛ فلم تترك من الأثر ما يدل إلا على خضوع يندى له جبين كل حر يجري في دمه شيء من الشهامة والإباء. وممن عَبَّر عن هذا الخضوع المهين الشاعر الدكتور غازي القصيبي، رَدَّه الله إلى وطنه سليماً معافى[1]؛ فقد قال في قصيدته عن جريمة اغتيال الطفل الفلسطيني محمد الدرَّة:

يا فِدَى ناظريك كُلُّ بيانٍ بِمعاني هَوانِنا يَتوقَّدْ

يا فِدَى ناظريك كل اجتماعٍ ليس فيه سوى خُضوعٍ يُجدَّد

بل إن حُرْقته النبيلة بلغت حَدّاً جعله يقول:

(١) انتقل إلى رحمة الله يوم ٥/ ٩/ ١٤٣١هـ الموافق ١٥/ ٨/ ٢٠١٠م.

قد علمنا تَهوَّد البعض منا أَولم يَبقَ معشر ما تَهوّد؟

وقال من قصيدة عن الفدائية الفلسطينية آيات:

قل لآيات: يا عَروسَ العَوالي كُلُّ حُسْنٍ لُمقلتيك الفداءُ
قد عَجَزنا حتى شكا العَجز منا وبكينا حتى ازدرانا البُكاءُ
ورَكَعنا حتى اشمأَز رُكوعٌ ورَجونا حتى استغاث الرَّجاء
وشَكونا إلى طواغيتِ بَيتٍ أَبيضٍ مِلءُ قَلبه ظَلماء

وكنتُ قد أوردت تلك الأبيات في مقالة نشرتها بعنوان (القصيبي مُعبِّراً عن القَضيَّة)، واختتمت تلك المقالة بما يأتي:

"لقد هجا شاعر قديم منافسه على أساس قبلي ممقوت بعيد عن الحق آمراً إيَّاه بأن يَغضَّ الطرف لأنه من القبيلة المَهجوَّة. والآن أليس من الصدق بمكان لو خاطب شاعر كُلَّ من أَيَّد العدوان على الشعب الفلسطيني ببقائه أَصمَّ أَبكمَ مستلذاً كؤوس الذل قائلاً:

فَغُضَّ الطَّرفَ إنَّك يَعربيٌّ تَمَرَّغ في المَذلَّة والهوانِ
يُداسُ على كَرامتِه فيبدو قَرير العين مُغتبط الجَنَان
إذا ما شاء سَيِّده يُغنِّي ويَعزِف - إن أَراد - على الكَمانِ

اللَّهم هَيئ لِأُمَّتنا من أَمرها رشداً.

وطننا العزيز والقدس[1]

- ١ -

أوشكت أن أجعل مقالتي هذا الأسبوع عن توالي انتصارات الكيان الصهيوني، وبخاصة بعد رؤيتي ما يحدث للقَضيَّة الفلسطينية، فلسطينياً وعربياً ودولياً. لكنني فَضَّلت أن يكون الحديث عَمَّا يَتضمَّنه عنوان هذه المقالة.

وهذا العنوان هو عنوان حديثي مساء يوم الثلاثاء الماضي ضمن نشاط قامت به - مشكورة مُقدَّرة - الندوة العالمية للشباب الإسلامي حول القدس، إيضاحاً لجهود وطننا العزيز في سبيلها. وسِجل الندوة العالمية للشباب الإسلامي حافل بالنشاط الدؤوب لمصلحة شباب أُمَّتنا، الذين هم عماد مستقبلها بعون الله، وتبصيرهم بقضاياها. زاد الله القائمين بإدارة شؤونها توفيقاً وسداداً.

ولقد شَرَّفتني الندوة بدعوتها إيَّاي لأشارك في الحديث عن جهود وطننا لنصرة القَضيَّة الفلسطينية بما فيها القدس. وقبل التحدث عن جهود وطننا، قيادة وشعباً، في سبيل فلسطين ودُرَّتها القدس- فَكَّ الله أسرها - أشرت باختصار إلى أمرين مهمين لهما علاقة واضحة بالقَضيَّة الفلسطينية.

---

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** في حلقتين أسبوعيتين أولاهما بتاريخ ٢٢/ ٣/ ١٤٣١هـ الموافق ٨/ ٣/ ٢٠١٠م.

الأمر الأول، أن حركة لوثر البروتستانتية، التي قامت في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، كانت نقطة انطلاق لما أصبح تصهيناً مسيحياً. وبَيَّنت كيف كانت كذلك، وكيف كان تأثيرها على مواقف أكثر معتنقيها، بحيث سَمَّوا أبناءهم ومستعمراتهم في أميركا الشمالية بأسماء عبرية. بل إن أول درجة دكتوراه تمنحها جامعة هارفرد عام **١٦٤٢م**، كان عنوانها: **العبرية هي اللغة الأم**. وكيف أن هذا العامل الديني كان - وما يزال - مُؤثِّراً على مواقف زعماء أميركا - وأغلبهم بروتستانت - من حيث مساعدة الصهاينة في فلسطين.

الأمر الثاني، أن من أبرز سمات علاقات الغرب بأُمَّتنا فيما يتعلَّق بفلسطين خاصة خداع زعمائه، لا سيما أولئك الذين أصولهم أنجلو - ساكسونية، لقيادات أُمَّتنا، وانخداع بعض هذه القيادات بذلك الخداع. بدا ذلك واضحاً في خداع زعماء بريطانيا للشريف حسين بن علي، رحمه الله، وانخداعه بخداعهم، كما هو معروف. فكان انخداعه مأساة له وكارثة لأمته. وما زالت أكثر قيادات أُمَّتنا - مع الأسف الشديد - تُخدَع وتنخدع بما يعلنه الزعماء الغربيون.

أما بعد:

فكان من نتائج الانخداع بخداع أعداء أُمَّتنا أن وقعت فلسطين في قبضة أولئك الأعداء بحيث أصبحت تحت انتداب بريطانيا، وهي الدولة ذات القيادة الماكرة المتصهينة المعادية للعرب والمسلمين. ومن أدلة تصهينها تعيينها صهيونياً ليكون أول مندوب سام لها في فلسطين. فكانت مَهمَّته الأولى تمهيد الطريق أمام الصهاينة لترسيخ أقدامهم في تلك البلاد كي يسيطروا عليها في نهاية المطاف.

والتصهين عميق الجذور في نفوس كثير من القادة البريطانيين. وقد تحدثت عن ذلك بنوع من التفصيل في مقدِّمة مؤلَّفي: **كتابات عن**

التصهين[١]، وفي كتابي: **مقالات عن الهم العربي**[٢]؛ وذلك في مقالة عنوانها: "من تاريخ التصهين البريطاني". ولقد وقف وطننا العزيز موقفاً مُشرِّفاً تجاه قَضيَّة فلسطين وأهلها من بداية النشاط الصهيوني على أرض تلك البلاد المباركة. وكيف لا تقف ذلك الموقف وهي مهد العروبة ومهبط الوحي على من أسرى الله به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي بارك الله حوله؟ والكتابات عن هذا الموقف المُشرِّف عديدة، موضحة عظمته؛ ابتداء من عهد مؤسس وحدة الوطن، وواضع أسس نهضته، الملك عبد العزيز - تَغمَّده الله برحمته - واستمراراً إلى الوقت الحاضر. ومن الكتابات المُوثَّقة المختصرة عن جهود هذا الملك العظيم بالذات في نصرة القَضيَّة الفلسطينية كتابة الشاعر والمؤرخ المُحقِّق خير الدين الزركلي، رحمه الله، انطلاقاً من كونها قَضيَّة عربية إسلامية، وشعوراً منه بوجوب تَحمُّله مسؤولية مناصرتها. ووفق ما ذكره ذلك المؤرخ في كتابه **شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز** كانت أول مجابهة للملك مع بريطانيا العظمى، التي لم يبق من صفات قادتها إلا إدمان المكر، عندما حاولت أن تنتزع منه اعترافاً بمركز خاص لها في فلسطين، وذلك عام **١٣٤٥**هـ/ **١٩٢٦**م، فرفض ذلك، وأذعنت لإرادته. وفي عام **١٩٢٩**م ارتكب الصهاينة الإرهابيون جريمة بشعة بإلقاء قنابل يدوية على المصلين في المسجد الأقصى فأرسل برقية إلى ملك بريطانيا عَبَّر فيها عن ألمه واستنكاره لما ارتكبه المجرمون، وطالبه بإنزال أقصى العقوبة بهم " ليكونوا عبرة للمعتبرين ويمنع تكرار مثل تلك الجريمة".

وعندما اندلعت ثورة **١٩٣٦**م الفلسطينية سارع الملك عبد العزيز إلى إرسال المعونة المادية إلى الذين نكبوا فيها، وبذل جهوداً لدى

(١) صدر عن دار المناهل في بيروت عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٥م.
(٢) صدر عن دار الرائي في دمشق عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٥م.

بريطانيا للإفراج عن المعتقلين من الثوار، ولإيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وفي عام ١٩٣٧م أخبر بريطانيا أنه " لا يوجد عربي صادق يوافق على تقسيم فلسطين".

ومن يَتأمَّل مراسلات الملك عبد العزيز مع قادة بريطانيا في تلك الفترة يجد أنها توضح موقفه المساند لقَضيَّة فلسطين، وتخطئته أولئك القادة في مواقفهم المنحازة للصهاينة.وكان من تلك المراسلات رسالة مُطوَّلة إلى ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا، عام ١٩٤٥م، فنَّد فيها مزاعم الصهاينة في أن لهم حقاً في فلسطين، وبرهن على أنها حق للعرب، تاريخاً موثَّقاً واستمرار معيشة مشهوداً. على أن من الثابت أن جد تشرشل، وهو تشارلز هنري تشرشل، كان ضابط الأركان البريطاني في المنطقة العربية، وأنه كتب، عام ١٨٤١م، إلى رئيس مجلس المُمثِّلين لليهود في لندن يخبره بأنه لا يستطيع إخفاء رغبته في أن يحقق الشعب اليهودي وجوده مرة أخرى في فلسطين، واقترح الخطوات لتحقيق ذلك. وما كان الحفيد ونستون إلا البار المُتبنِّي لرغبة الجد تشارلز.

وكان من نتائج الحرب العالمية الثانية أن تَرسَّخت قوة أميركا في العالم، وأصبح لها الدور الأكبر في سير الأحداث، أو تسييرها، في المشرق العربي.

وإدراكاً من الملك عبد العزيز لمستجدات الأمور أصبح يركز جهوده في إقناع قادة أميركا في عدالة القَضيَّة الفلسطينية. ومراسلاته مع الرئيسين روزفلت وترومان واضحة الدلالة على أن رَدَّ الرئيس روزفلت على مناشدته أن يكون نصيراً للمعتدى عليه، وهو الشعب الفلسطيني، تَضمَّن إيضاح موقف أميركا في البيان العام، الذي أصدرته وزارة الخارجية الأميركية. وقد ورد فيه:

"كما هو معروف حق المعرفة، فالشعب الأمريكي قد اهتم اهتماماً

وثيقاً عدة سنين بِرقيِّ الوطن القومي اليهودي في فلسطين. وكلُّ رئيسٍ؛ ابتداء من الرئيس ولسون، قد عَبَّر عن اهتمامه الخاص في مناسبة واحدة، أو مناسبات عدة، بفكرة وطن قومي لليهود، وأَبدى سروره بالتقدم الذي وصل إليه إنشاء هذا الوطن. وفوق ذلك فقد عَبَّر عن عطف الأميركيين على الوطن اليهودي في فلسطين.. وإنه في ضوء هذا الاهتمام قد راقبت الحكومة الأميركية وشعبها بِأشدِّ العطف تَدرُّج الوطن القومي في فلسطين، وهو مشروع لعب فيه الذهب ورأس المال الأميركي دوراً رئيسياً".

وفي عام ١٩٤٥م نُقِل عن الملك عبد العزيز، رحمه الله رحمة واسعة، قوله أَمام مُمثِّلي الدول الأجنبية في المملكة:

" إنه لشرف لي أن أَموت شهيداً في ساحة القتال دفاعاً عن فلسطين في معركتها مع اليهود.. وإن العرب لن يقبلوا أبداً بقيام دولة يهودية في بلادهم، وإن على أميركا وبريطانيا أن تختارا بين أرض عربية يسودها السلام والهدوء وأرض يهودية غارقة بالدم".

رحم الله ذلك الملك العظيم العربي المسلم المخلص لأُمته. أما أميركا وبريطانيا فقد اختارتا - كما كان مُتوقَّعاً منهما - أن تكون أرض فلسطين أرضاً يهودية غارقة بدم الشعب الفلسطيني. وما زال اختيارهما مُؤكَّداً عليه كلُّ التأكيد؛ مناصرة غير محدودة للصهاينة في جميع المحافل وبكل الوسائل؛ مادية ومعنوية. وأما قبول العرب بشرعية قيام دولة يهودية في فلسطين فأمر يصعب التحدث عنه على من في فمه ماء كثير. ولله الأمر من قبل ومن بعد. على أن الحديث متواصل - إن شاء الله - في الحلقة القادمة عن جهود وطننا العزيز الواضحة؛ قيادة وشعباً، في مناصرة القَضيَّة الفلسطينية والشعب الفلسطيني بمختلف الوسائل، وهي جهود أرسى الأسس التي قامت عليها الملك عبد العزيز؛ انطلاقاً من إيمانه - رحمه الله - بأنها عمل واجب تجاه قَضيَّة عربية إسلامية عادلة.

- ٢ -

قبل مواصلة الحديث عن موقف وطننا العزيز المُشرِّف؛ قيادة وشعباً، تجاه قَضيَّة فلسطين، وجهوده المخلصة في دعم الشعب الفلسطيني، أَودُّ الإجابة - وفق ما أعرف - عن سؤال أخ عزيز مهتم بالناحية التاريخية حول تلك القَضيَّة. وسؤال هذا الأخ العزيز هو: هل بدأ التصهين المسيحي في بريطانيا أم في أميركا؟

الذي أعرفه أن من نتائج حركة لوثر أن تَسرَّبت إلى عقيدة من اعتنقوها ثلاثة أمور: أن اليهود هم شعب الله المختار، وأنه يربطهم بفلسطين ميثاق إلهي، وأن عودة المسيح المنتظرة لديهم مربوطة بتجمُّع اليهود في فلسطين. وهذه الأمور هي التي جعلت منهم متصهينين. ومما أعرفه، أيضاً، أنه لم ينته القرن السادس عشر الميلادي، الذي ظهرت في منتصفه الحركة البروتستانتية، إلا وقد بدأ البروتستانت في بريطانيا يكتبون معاهدات تنادي بأن يغادر جميع اليهود أوروبا إلى فلسطين؛ إيماناً منهم بعقيدة التصهين. وكانت طليعة من احتلوا أميركا الشمالية التي أصبحت الولايات المتحدة الأميركية فيما بعد، من الأنجلو - ساكسون المُتشبِّعين بتلك العقيدة. ولكونهم كذلك لم يكن غريباً أن ظهر تصهينهم بالصورة التي أشير إليها في مستهل الحلقة الأولى، وتَطوَّر حتى نادى الرئيس الأميركي، جون آدمز، بقيام دولة مستقلة لليهود في فلسطين عام ١٨١٨م؛ أي قبل وعد بلفور بمئة عام. وبعد عشرين عاماً من تلك المناداة بعث وزير البحرية البريطانية مذكرة إلى بالمرستون، وزير خارجية بريطانيا، يدعوه فيها إلى الاقتداء بالإمبراطور الفارسي قورش بإعادة اليهود إلى

فلسطين. وتزامن ذلك مع تَبنِّي بريطانيا مشروعاً عُرف بمشروع اللورد شافتسبري، مضمونه أن فلسطين " أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". والحديث عن التصهين المسيحي؛ نشأة واستمراراً، يطول. لكن المرء الآن يكاد يضع يده على قلبه خوفاً من أن يظهر تصهين عربي إسلامي.

أما بعد:

ففي اللقاء، الذي تَمَّ بين الملك عبدالعزيز، رحمه الله، والرئيس روزفلت، عام ١٩٤٥م، طلب الرئيس من الملك السماح بدخول عدد من اليهود إلى فلسطين. فقال له الملك: لا. وبَيَّن أن اليهود لم ينجحوا في العمل على ازدهار المنطقة التي احتلوها إلا بفضل رؤوس المال الأميركية والبريطانية، وأن الملايين التي أُعطيت لهم لو أُعطيت للعرب لعملوا مثل عملهم. وأوضح أن العرب لن يسمحوا لليهود بأيِّ تَوسُّع آخر في فلسطين مستقبلاً، وأنهم سيحملون السلاح دون ذلك التوسع. وعندما قال له الرئيس: ماذا نعمل باليهود المُشرَّدين من بلدانهم؟ أجابه بقوله: من أين أتوا؟ ليعد كُلٌّ إلى بلده.

ولقد حاول الملك عبدالعزيز، رحمه الله، أن يرسل متطوعين سعوديين ليجاهدوا مع إخوانهم الفلسطينيين، لكن الطريق سُدَّ أمامهم. فكان أن أرسل كتيبة من الجيش السعودي لترافق الجيش المصري المُتَّجه إلى فلسطين، وظَلَّ ثابتاً في موقفه العربي الإسلامي النبيل، الذي لا يتزعزع في رفضه الاعتراف بشرعية الكيان الصهيوني على أرض فلسطين. وبقي خلفاؤه في الحكم من أبنائه الكرام مدافعين عن القَضيَّة الفلسطينية بكل ما يستطيعون، داعمين للشعب الفلسطيني بمختلف الوسائل. ومما يذكر، فيشكر لهم، أنهم رفضوا إقامة أَيِّ اتصال بالكيان الصهيوني بالرغم من إلحاح الإدارات الأميركية المتصهينة المتعاقبة.

وكانت القدس بالذات - وفيها المسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى

- في قلب كل واحد من أولئك الملوك الكرام. ولَعلَّ من أدلة ذلك إدراك شاعر فلسطين أن الملك سعوداً، رحمه الله، أهل لأن يشتكى إليه وضع ذلك المسجد الشريف. فعندما زاره - قبل تَولِّيه الملك - ألقى ذلك الشاعر أمامه قصيدة قال في بيت منها:

المَسجد الأَقصى أَجِئتَ تزوره أَم جِئتَ من قَبلِ الضياع تُودِّعه؟

ومن الأدلة على ذلك، أيضاً، ما قامت به القيادة السعودية المُوفَّقة إثر حرب ١٩٦٧م من دعم مالي لتعزيز جبهات الصمود العربية والمجاهدين الفلسطينيين. بل إنها أرسلت قوات سعودية تقف في تلك الجبهات إلى جانب رفاق سلاحها من إخوانها العرب. وموقف الملك فيصل، رحمه الله، في حرب ١٩٧٣م موقف يعرفه الجميع، ويُقدِّرونه كل التقدير. ومن يقرأ مذكرات كيسنجر، وزير خارجية أميركا الصهيوني حينذاك، يتضح له مدى رسوخ مسألة القدس في قلب ذلك الملك. فمما ذكره كيسنجر أنه كان يحاول إقناع الملك بإبداء مرونة مثل مرونة زعماء عرب آخرين؛ عارضاً عليه قيام أميركا - بكل إمكانياتها العلمية والإدارية - بتطوير المملكة في مختلف المجالات، وأنه كان يطيل ويطيل في عرض ما يعرضه؛ والملك ينصت إليه، فإذا أكمل حديثه كان جواب الملك: وماذا عن القدس؟ وبطبيعة الحال، لم يكن لدى كيسنجر جواب عن ذلك السؤال. وهذا أمر مُتوقَّع. وكيف يكون لديه جواب عن سؤال وجيه؛ وهو الصهيوني القائم بوزارة خارجية دولة أغلب من تعاقبوا على رئاستها متصهينون أو مضطرون إلى عدم إغضاب الصهاينة؟

أعلم أن القدس عزيزة على نفس كل عربي ومسلم يعتز بانتمائه إلى أُمته. وأعلم، أيضاً، أن الكيان الصهيوني قام على الإرهاب، كما اعترف بذلك أحد قادة مجرميه؛ وهو مناحيم بيجن الحائز على جائزة نوبل للسلام، في كتابه **الثورة**، وأنه ظَلَّ يرتكب أنواع الإرهاب البشعة التي هي صفة ملازمة له.

ومن المعروف أن حكومات الكيان الصهيوني المتعاقبة أَيّاً كانت انتماءاتها الحزبية مُتَّفقة على تهويد الأراضي الفلسطينية التي احتلتها عام ١٩٦٧م، وإخلائها من أهلها الأصليين. وما كانت اتِّفاقية أوسلو، التي أمل فيها اللاهثون وراء سراب المفاوضات من الفلسطينيين وغيرهم من العرب، إلا محطة استخدمها قادة الصهاينة أبرع استخدام لمواصلة تهويد الأرض المحتلة وتكثيف هذا التهويد.

ومن المعروف، أيضاً، أن كُلًّا من الصهاينة والمتصهينين مُتَّفقون من حيث المبدأ على أنه لا عودة إلى حدود عام ١٩٦٧م، وأنه لا حق عودة للاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم مع أن هذا الحق قد أَقرَّته الأمم المتحدة. ولا أظنهم مختلفين حول بقاء المستعمرات الاستيطانية الصهيونية المُمزِّقة لأراضي الضفة الغربية المصادرة لأحسنها، ولا حول الجدار العنصري. بل إن تهويد الأرض الفلسطينية ما زال يزداد بسرعة كل يوم، وإن أركان المسجد الأقصى الآن مُهدَّدة بالتهدُّم نتيجة الحفريات التي يقوم بها الصهاينة. ولا يبدو - مع الأسف الشديد - إلا أن أكثر زعماء أُمَّتنا في واد والأخطار التي يواجهها المسجد الأقصى في واد آخر. وإذا انساق المرء مع عدم تفاؤله - بناء على ما يراه ويؤلمه - فلا بد أن يخطر بباله هذا السؤال: ماذا سيكون رَدُّ فعل هؤلاء الزعماء السادرين لو فُوجِئ الجميع بإقدام الصهاينة على ارتكاب هدم الأقصى أو هدم أجزاء منه؟ ما يعتقده من يخطر بباله ذلك السؤال هو أن الإجراء الوحيد الذي سيقومون به هو الشكوى إلى مجلس الأمن. وكنت قد عَبَّرت عن مثل هذا الموقف ذات يوم بقولي:

السَّادرون من الحُكَّام ما بَرِحوا يَرجون من سَلَب الأَوطان واغتصبا
لِمجلسِ الأَمن قد مَدُّوا أَكفَّهمُ سَاء المُؤمِّل والمأمول مُنقَلبا
هَل يَفرضُ المجلسُ الدَّولي سُلطته إلا إذا استهدف الإسلامَ والعَرَبا؟

تَوالي انتصارات الصهاينة[1]

- ١ -

كنتُ قد كتبتُ مقالة بعنوان " هذا هو العصر الصهيوني" ؛ وذلك بعد شهور من احتلال أميركا المتصهينة مع حليفتها بريطانيا الحاقدة على أُمَّتنا للعراق. وكان ذلك الاحتلال - كما قال رئيس أركان القوات الأميركية - خدمة للكيان الصهيوني. وقد أشرتُ في تلك المقالة إلى سبب تسميتي هذا العصر بالاسم الذي سَمَّيته به، كما أشرت إلى أن تَبنّي قسم من المسيحيين العقيدة الصهيونية، وانتشار الماسونية - ولليهود الدور الأكبر في نشأتها - بين أعداد من ذوي المكانة السياسية والاجتماعية في العالم؛ وبخاصة الدول المتقدمة علمياً واقتصادياً، كانا من أهم أسباب تغلغل النفوذ الصهيوني في العالم، إن لم يكونا أهم هذه الأسباب.

والذي أميل إليه - كما ذكرت في مقالة سابقة - أن هناك أمرين لهما دور كبير في حصول الصهاينة على ما حصلوا عليه من انتصارات. أول هذين الأمرين أن حركة لوثر البروتستانتية، التي قامت في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، كانت نقطة انطلاق لما أصبح تصهيناً مسيحياً. وكانت طليعة من احتلوا أميركا الشمالية من الأنجلو - ساكسون البروتستانت المُتشبِّعين - على العموم - بالعقيدة الصهيونية، فكراً

---

(١) نُشرِت في صحيفة **الجزيرة** في ثلاث حلقات أسبوعية أولاها بتاريخ ٦/ ٤/ ١٤٣١هـ الموافق ٢٢/ ٣/ ٢٠١٠م.

وتطبيقاً. ومما نشأ عن ذلك التوجُّه التصهيني حماسة معتنقيه لعودة اليهود إلى فلسطين، ودعم قوتهم فيها، تمهيداً لعودة المسيح المنتظرة في رأيهم. وثاني الأمرين أن من أبرز سمات علاقات الغرب بِأُمَّتنا فيما يخص فلسطين بالذات خداع زعمائه لقيادات أُمَّتنا، وانخداع بعض هذه القيادات بذلك الخداع. بدا ذلك واضحاً في خداع زعماء بريطانيا - رأس المكر - للشريف حسين بن علي - رحمه الله - وانخداعه بخداعهم، كما هو معروف. وما زالت أكثر قيادات أُمَّتنا تخدع وتنخدع بما يعلنه الزعماء الغربيون.

كان الأمر الأول مُهمّاً جداً؛ إذ يُمثِّل في نظري انتصاراً عظيماً من انتصارات اليهود الصهاينة. ولقد ظهر أثره عملياً في تسمية بعض المسيحيين المحتلين لأميركا بعض أبنائهم ومستعمراتهم بأسماء عبرية. بل إن عنوان أول درجة دكتوراه تمنحها جامعة هارفرد عام ١٦٤٢م كان (العبرية هي اللغة الأم). ونتيجة لذلك التصهين لم يكن غريباً أن نادى الرئيس الأميركي، جون آدمز، بقيام دولة مستقلة لليهود في فلسطين عام ١٨١٨م؛ أي قبل وعد بلفور بمئة عام.

وكان من الانتصارات المهمة للصهاينة إعلان وعد بلفور. وهذا أمر معروف لدى الكثيرين. لكن انتصاراً آخر لهم أعقبه وهو وقوع فلسطين تحت انتداب بريطانيا، التي كان عدد من زعمائها المشهورين في طليعة المُتحمِّسين لدعم الصهاينة. ومن نتائج تلك الحماسة لهم تعيينها أول مندوب سام لها في تلك البلاد صهيونياً معروفاً كان هَمُّه الأكبر تمهيد الطريق للصهاينة ليرُسِّخوا أقدامهم هناك.

ومَرَّت السنوات تِلْوَ السنوات، وعجلة خداع قادة الغرب لأُمَّتنا تدور وانخداع كثير من قادة هذه الأمة بذلك الخداع إلى أن حَقَّق الزعماء الصهاينة حلمهم بإعلان قيام دولتهم على أرض فلسطين عام ١٩٤٨م،

مُؤيَّدين تأييداً غير محدود من قبل أميركا المتصهينة بالدرجة الأولى، والدول الغربية عموماً؛ رأسمالية وشيوعية، بالدرجة الثانية. ولقد ظهر عند حدوث العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م شيء من التضامن العربي المحمود مع تلك الدولة المعتدى عليها. لكن من نتائج ذلك العدوان أن تَمكَّن الكيان الصهيوني من الوصول إلى مياه البحر الأحمر. وكان هذا انتصاراً ليس قليل الأهمية. ولأنه كان - وما يزال - يجمع بين فرنسا والكيان الصهيوني عداوتهما لأُمَّتنا؛ عربية وإسلامية، انتصر الصهاينة ببناء مفاعل نووي بمساعدة فرنسية. ولهذا ما له من ثِقَل في ميدان التوازن العسكري في المنطقة.

أما الانتصار العظيم جداً، الذي حَقَّقه الصهاينة، فكان استيلاءهم على بقية فلسطين - بما فيها القدس - وأراض عربية أخرى عام ١٩٦٧م. وإذا كان التضامن العربي مع مصر قد تَجلَّى إبَّان العدوان الثلاثي التآمري عليها سنة ١٩٥٦م فإن المقاتل العربي على الجبهتين المصرية والسورية قد أظهر عظمته ومقدرته في حرب ١٩٧٣م. لكن من حَقَّق معجزة عبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف في بداية تلك الحرب ضُرِب في نهايتها، أو صُدِم، برؤيته قسماً من الجيش المصري محاصراً من قِبَل قسم من الجيش الصهيوني غرب القناة. ولا تسأل عن السبب. فكثير من الأمور قد يذاع سِرُّها وقد تبقى سِرِّية. على أنه لم يَحلَّ عام ١٩٧٩م إلا وقد انتقل إلى الدار الباقية رموز القيادة العربية، الذين كان لهم الدور الأكبر والأهم في إظهار عظمة الإرادة المُتجلِّية في أوضح صورها بقرارات مؤتمر الخرطوم عام ١٩٦٧م.

وهكذا كان عام ١٩٧٩م هو العام الذي وصفه أحد قادة الكيان الصهيوني بأنه عام تَحقَّق فيه للدولة الإسرائيلية انتصار لا يضاهيه إلا الانتصار بقيام تلك الدولة عام ١٩٤٨م. ذلك أن الصهاينة نجحوا

باتِّفاقية كامب ديفيد في إخراج مصر العظيمة - بكل ما تملكه من إمكانيات - من ميدان المواجهة مع الكيان الصهيوني المحتل لأراضي أُمَّتنا ومُقدَّساتها. كان الموقف العربي هو أن ما أُخِذ بالقوة لا يُستعاد إلا بالقوة؛ وبخاصة إذا كان المحتل عدواً مثل الصهاينة الذين يرون أن كل ما يرتكبونه من جرائم فظيعة حلال لهم؛ دينياً وعِرْقياً، وإذا كان الاحتلال احتلالاً استيطانياً يريد إحلال شراذم من كل أقطار الأرض مَحلَّ شعب كان على أرضه آمناً مستقراً. وأكثر حركات التحرير في العالم وجدت أن ذلك الموقف هو السبيل الصحيح إلى التحرر من الاستعمار. هو موقف غالي الثمن، لكن لا بد مما ليس منه بد. وآثار ما حدث نتيجة تلك الاتِّفاقية في كامب ديفيد عام ١٩٧٩م؛ وهي الاتِّفاقية التي كوفئ المُوقِّعان عليها بجائزة نوبل - وأحدهما كان مجرم حرب كما اعترف بارتكابه الإرهاب في كتابه الثورة - سوف تكون مدار الحديث في الحلقة القادمة إن شاء الله.

- ٢ -

ما ظهر حتى الآن من بنود اتِّفاقية كامب ديفيد، عام ١٩٧٩م؛ وهي الاتِّفاقية التي عارض بعض بنودها وزير خارجية مصر نفسها المشارك في وفد المفاوضات المُؤدِّية إليها، هو أن انسحاب الجيش الصهيوني من سيناء مشروط بعدم دخول الجيش المصري دخولاً حراً فيها، وأن على مصر أن تبيع الغاز إلى الكيان الصهيوني بسعر يرضاه هذا الكيان. وكما عارض وزير خارجية مصر المذكور سابقاً بعض بنود تلك الاتِّفاقية بشجاعة ونزاهة حكمت محكمة مصرية نزيهة قبل شهور من الآن بإيقاف بيع الغاز إلى ذلك الكيان؛ وبخاصة أن في السعر الذي يباع به حيفاً وغبناً على مصر. لكن كما ذهبت معارضة الوزير المحترم أدراج الرياح ذهب حكم هذه المحكمة النزيهة كذلك. وكان على مصر - وفق اتِّفاقية كامب ديفيد - عدم القيام بأيِّ مساعدة للمقاومة الفلسطينية، إن لم يُقَل بأن تحول دون تلك المقاومة. ومصر ذات التاريخ الحضاري والنضال التاريخي المُشرِّف كانت هي المُؤيِّدة لحركات التحرير كما برهنت على ذلك في الوقوف مع الثورة الجزائرية المجيدة. وغياب مصر عن ميدان المواجهة مع الصهاينة خسارة كبيرة على أُمَّتنا؛ لا سيما فيما يخص قَضيَّة فلسطين واحتلال الصهاينة لهذا القطر العزيز منها وأراضي بلدان عربية أخرى. وذلك الغياب كان انتصاراً للصهاينة قارن أهميته بالنسبة إليهم أحد قادتهم بأهمية إقامة كيانهم على أرض فلسطين عام ١٩٤٨م، كما أشير إلى ذلك في الحلقة الأولى من هذه المقالة.

وكان انهيار ذلك السد، الذي كان منيعاً أمام الصهاينة، بمثابة بداية

انهيار سدود أخرى لم تكن لها تلك المناعة؛ قوة وصلابة. ولذلك لم يَمرَّ وقت طويل حتى بدأ قادة العرب يُعدُّون كفن القَضيَّة الفلسطينية مبتدئين بصلاة الجنازة على مقررات مؤتمر الخرطوم. وقد نُودِي لتلك الصلاة أَول مرة في مؤتمر لقمتهم عُقِد في العاصمة المغربية. وإذا برفض السلام مع الصهاينة يصبح بين عشية وضحاها نداء للسلام معهم. وليُؤكِّدوا هذا النهج الجديد لأولئك الذين ساورهم شك في حقيقة هذا التغيُّر، أو التغيير، أعلنوا في مؤتمر آخر من مؤتمراتهم القممية أن السلام مع الدولة الصهيونية هو خيارهم الاستراتيجي دون أن يضيفوا إلى ذلك أن هذا الخيار إن فشل فإن أمامهم خيارات أخرى. ومضت الأيام وكلما عقب اجتماع اجتماعاً آخر قبله زاد التأكيد على خيار السلام مع أولئك الصهاينة. وهل يتوقع من عدو لدود نشأ بالإرهاب، وتَلذَّذ في ارتكاب الجرائم البشعة؛ وهو يرى هذا الموقف الاستكاني الاستسلامي العربي لكل ما يفرض من وقائع على الأرض، غير التمادي في الصلف وتنفيذ خططه التهويدية الشرِّيرة؟

كان كل اجتماع لزعماء العرب - بتأكيده على خيار السلام مع الصهاينة دون ربط ذلك بإمكانية انتهاج خيار آخر إذا فشل السلام معهم - بمثابة توالي انتصارات لهؤلاء الصهاينة وترسيخ لاحتقارهم لأولئك الزعماء، الذين بلغ من هوانهم أنهم لا يجدون أمامهم إلا التنديد والإدانة، أو مَدَّ أَكفِّ الضراعة إلى مجلس الأمن أو إلى الدولة المُتحكِّمة في قرارات هذا المجلس. وكنت قد أشرت إلى هذا في أبيات من قصائد، منها:

أَتى بيانُ الغَيَارى مثلما رَغِبوا فَلتسعد الحالُ وليهنأ به العَرَبُ
أَتى كما أَلِفت آذان أُمَّتنا سَماعَه من كَلامٍ كله عَجَب
إدانةً للطغاة المجرمين على ما نَفَّذوا من عَظيمِ الجَور وارتكبوا

ومُستطابَ أَقاويلٍ مُزخرفةٍ لولا الحَياءُ لقلنا إنها كَذِب

ومنها:

لمجلسِ الأَمن قد مَدُّوا أَكفَّهمُ ساء المؤمِّل والمَأمولُ مُنقلَبا

هَل يَفرضُ المَجلس الدوليُّ سُلطتَه إلا إذا استهدف الإسلامَ والعَرَبا؟

ومن أبيات تلك القصائد:

وَعُدتُ أَبحث عن حَلٍّ يقدِّمه من صَبَّ فَوقيَ من وَيلاتِه ضَرَما

ومنها:

وهل تَظنون من يُبدي نَصائحَه عَدلاً يُحقِّق في الشكوى كما يَجبُ

صِنوانِ قَادةُ أمريكا - وإن جحدوا- وطُغمةٌ لبني صهيون تَنتسبُ

ومن أَدلَّة احتقار الصهاينة للزعماء العرب، الذين يَتَّسم أكثرهم بأنهم أسود على شعوبهم المغلوبة على أمرها فحسب، إقدام أولئك الصهاينة على ارتكاب جرائم فظيعة في حق الشعب الفلسطيني فور انتهاء كل اجتماع لزعماء أُمَّتنا العربية، التي كانت في يوم من الأيام مجيدة.

ومن انتصارات الصهاينة المتوالية احتلال جيش صدام للكويت ظلماً وعدواناً. ذلك أنه زاد في انقسام العرب وتَفرُّقهم، ومَهَّد الطريق أمام المتصهينين في أميركا لتحطيم قوة العراق، التي كانت الخطر الاستراتيجي الحقيقي على الكيان الصهيوني كما أكد ذلك جيمس بيكر، وزير خارجية أميركا حينذاك. وكان ذلك التحطيم خدمة كبرى للكيان الصهيوني، كما كان إضعافاً للعرب على العموم مما جعلهم يقبلون بمفاوضات مع هذا الكيان في مدريد؛ وهو الأمر الذي - كما قال بيكر - ظَلَّ الصهاينة يأملونه أكثر من أربعين عاماً.

ومن تلك الانتصارات ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر عام

٢٠٠١م. وكان حادثاً ما زالت تدور أسئلة حوله: كيف استطاع من قاموا به القيام به، وكيف نَفَّذوه، وكيف لم تكتشف خطتهم أجهزة الأمن الأميركية الراصدة لكل تَحرُّكات العالم تقريباً. لكن هناك أدلة على أن أجهزة الأمن الصهيونية كانت على علم بأنها ستحدث ولم تخبر الأميركيين بما لديها من معلومات. وكون ما حدث انتصاراً للصهاينة أمر واضح. ذلك أنه أصبح سبباً لحشد الكثيرين؛ لا سيما سكان الدول الغربية عموماً وأميركا خصوصاً، ضد أُمَّتنا؛ عرباً ومسلمين. وكل هذا يصب في مصلحة الكيان الصهيوني.

ولأن المناخ السياسي أصبح مناسباً لأَعداء أُمَّتنا؛ وبخاصة أميركا المتصهينة إدارة، كي يُوجِّهوا ضربات عنيفة ضد هذه الأمة قام الأميركيون بغزو أفغانستان واحتلالها؛ وهو الاحتلال الذي ما زالت تلك البلاد المحتلة تعاني الأهوال منه. بل إن نتائجه لم تقتصر على أفغانستان وإنما امتدت إلى باكستان. على أن الأهم والأعظم بالنسبة للصهاينة كان احتلال أميركا مع حليفتها بريطانيا الحاقدة على أُمَّتنا للعراق، ومن ثم إكمال تحطيم هذا البلد؛ دولةً وجيشاً وبنية أساسية ولحمة اجتماعية. وكنت قد كتبت عن " مكاسب الصهاينة في العراق" نتيجة ذلك الاحتلال مقالة من ثلاث حلقات نشرت - فيما بعد - ضمن كتابي **مقالات عن الهَمِّ العربي**، الذي أصدرته دار الرائي في دمشق عام **٢٠٠٥**م.

وللحديث عن تَوالي انتصارات الصهاينة بقية إن شاء الله.

- ٣ -

قال لي أحد الإخوة الذين أُكِنُّ لهم مَودَّةً وتقديراً: لقد بالغت في جعلك اتِّفاقية كامب ديفيد انتصاراً للصهاينة مضاهياً لانتصارهم في إقامة دولتهم على أرض فلسطين، فقلت له: إن في طليعة من وصف تلك الاتِّفاقية بما ورد في كلامي أحد قادة الكيان الصهيوني، ولا أظنه جاهلاً لا يدرك أبعاد الأمور والقضايا. ولَعلَّ من أَدلَّة سوئها على مصر بخاصة؛ وأُمَّتنا العربية بعامة، أن الشرفاء في الحكومة المصرية حينذاك لم تسمح لهم ضمائرهم أن يبقوا في حكومة تقدم على قبولها والتوقيع على بنودها المجحفة بحق وطنهم العزيز وأمتهم العربية المسلمة.

أجل.. كان انسحاب مصر - بكل ما لديها من إمكانات - من ميدان المواجهة مع الكيان الصهيوني وفق اتِّفاقية كامب ديفيد نصراً عظيماً لذلك الكيان، كان حدثاً فك ارتباط مصر بفلسطين، وهو الارتباط الذي تأسس منذ عصر الفراعنة. يعلم هذا حق المعرفة كل مَن قرأ تاريخ مصر وفلسطين القديم، ويعرفه أيضاً، كل مَن قرأ تاريخ هذين القطرين عبر القرون.

كان الفرنجة الذين تَلقَّبوا بالصليبيين يدركون ذلك الارتباط غاية الإدراك؛ ولهذا لم يكتفوا بغزو فلسطين، وإنما غزوا معها مصر أيضاً. ومن المعروف أن فلسطين لم تَتحرَّر من احتلال الفرنجة إلا عندما انطلق الجيش الإسلامي من مصر لتحريرها تحت راية صلاح الدين الأيوبي، ثم تحت راية المماليك، وفي طليعتهم الظاهر بيبرس.

ومما يوضح ذلك الارتباط، أيضاً، أن نابليون لم يكتف بغزو مصر بل

رأى أن تأمين الاحتلال الناتج عن ذلك الغزو مرهون باحتلال فلسطين إلى حد كبير. وكان من الوسائل التي حاول استخدامها لاحتلال فلسطين أن دعا اليهود - وهو من نتاج الثورة الفرنسية المتعاطفة تعاطفاً عظيماً مع اليهود - إلى " إعادة مجدهم - كما زعم - بإحياء مملكة القدس القديمة تحت لوائه" ؛ وذلك عام ١٧٩٩م. وكان بذلك أول رجل دولة غربي يقترح إقامة دولة يهودية في فلسطين، على أن فشله أمام أسوار عكا كان نقطة البداية لخروجه مخذولاً من مصر.

ومما يشير إلى هذا الارتباط، أيضاً، أن ما حدث في حرب ١٩٤٨م كان سبباً من أسباب قيام ثورة مصر عام ١٩٥٢م، وما كان قادة تلك الثورة عند القيام بها ذوي تَوجُّه قومي عربي، بل كان منطلقهم أن أمن مصر مرتبط بأمن فلسطين. وعندما سمحوا للفدائيين الفلسطينيين أن ينطلقوا في عملياتهم الفدائية ضد الصهاينة المحتلين من غَزَّة، التي كانت تحت الإدارة المصرية عام ١٩٥٥م، كانوا يرون أن أمن فلسطين مكمل لأمن مصر.

ذلك هو تاريخ مصر في مختلف القرون، ولقد قرأ زعماء الصهاينة التاريخ قراءةً صحيحةً، وتَأمَّلوا دروسه حق التأمُّل، وهم بهذا يختلفون كلَّ الاختلاف عن أكثر زعماء عرب الوقت الحاضر الذين يأنفون من قراءة التاريخ، أو يقرؤون شيئاً منه قراءةً أبعد ما تكون عن أخذ الدروس والعبر منه. ولهذا صدق مجرم الحرب الصهيوني موشي دايان - وهو كذوب - عندما قال: العرب لا يقرؤون. وقراءة زعماء الصهاينة للتاريخ هي التي من علاماتها، أو من أمثلتها، قول مجرمة الحرب الصهيونية جولدا مائير، عندما وصلت قواتهم إلى إيلات على رأس البحر الأحمر عام ١٩٥٦م: " إني لأتنفس رائحة خيبر" ، وقول دايان أمام جدار البراق - وبعض أجهزة إعلام أُمَّتنا تُسمِّيه ما تسمِّيه أجهزة الصهانية والمتصهينين

حائط المبكى - عام ١٩٦٧م: ".. يا لَثاراتِ خيبر وبابل!". أعداء أُمَّتنا يقرؤون التاريخ - وربما زَيَّفوا صفحات منه - ليستمدوا منه قوة معنوية تعينهم على ارتكاب جرائمهم. ومن أُمَّتنا مَن هم محسوبون على رجال الفكر والثقافة، وينظرون إلى تاريخ أُمَّتنا نظرة دونية، ويَتجنَّون عليه مُثبِّطين لعزائم أصحاب الحق من هذه الأُمة.

أما بعد:

فقد سبق أن كتبت مقالة عنوانها: " وصول الصهاينة إلى القمة"؛ وذلك عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. وكانت كتابتها وهم يواصلون ارتكاب جرائمهم البشعة مُتحدِّين كل المنظمات العالمية المعنية بحقوق الإنسان. ذلك لأن أميركا سيدة العالم المُتحكِّمة في قيادات العالم بدرجة كبيرة تقف بصراحة وبجاحة مع مرتكبي تلك الجرائم. بل إن رئيسها حينذاك، بوش الابن، كان لا يَكفُّ عن شرب كأس التصهين حتى الثمالة؛ بحيث لم يكن ليترك فرصة دون إظهار مزيد من ولائه للصهاينة، وإذا به يَتبنَّى مشروعاً يُصنف بموجبه دول العالم حسب مواقفها مما يُسمَّى "اللاسامية". وما هذا إلا محاولة لِسدِّ الباب أمام أَيِّ نقد للكيان الصهيوني المستمر في ارتكاب جرائمه ضد أُمَّتنا. لكن هل أميركا وحدها التي وصل وقوف زعمائها مع الصهاينة إلى ما وصل إليه؟ لا. لكن أميركا هي الأهم والأعظم.. إن رجالات الغرب بعامة؛ سياسيين ومفكرين، يبدون كأنما كُتِب عليهم أن يظهروا ولاءهم لأولئك الصهاينة. ففي فرنسا - مثلاً -، وهي بلد الثورة التي من أسسها الحرية، كتب باحث فرنسي أبيض رسالة عن الهولوكست، وبَيَّن بالوثائق والأرقام أن هناك مبالغة في الأعداد التي قيلت - ورُوِّج - عنها. وأُجِيزت الرسالة من اللجنة العلمية في تلك الجامعة، ومُنِح الباحث الدرجة. لكن لم يمضِ شهر على ذلك حتى أتى وزير التعليم الفرنسي نفسه إلى تلك الجامعة، وعَنَّف مسؤوليها،

وسُحِبت الدرجة العلمية، أو الشهادة، من الباحث. وقبل شهور أصدرت محكمة بريطانية - وبريطانيا أم القانون والديمقراطية - حكماً باعتقال وزيرة خارجية الكيان الصهيوني إن هي قدمت إلى تلك البلاد، وإذا برئيس الوزراء البريطاني يسارع إلى إلغاء الفقرة من القانون التي حكمت تلك المحكمة بموجبه. أما وقد وصل الصهاينة إلى القمة في العالم، وذلك في هذا العصر الصهيوني، فهل يزحزحون عن هذه القمة؟

تلك المسألة هي ما تناولته في مقالة نشرتها بعد أسبوع من نشر المقالة السابقة، وكان مما قلته في ذلك التناول: إن أقوى دولة في العالم الآن هي الولايات المتحدة الأميركية التي أصبحت عاد هذا الزمان تستعرض عضلات قوتها مُتبنِّيةً مقولة عاد الأولى: من أَشدُّ منا قوة؟ وتبطش بالآخرين الذين يُفكِّرون - مُجرَّد تفكير - بعدم تقديم آيات الخضوع لها؛ متغطرسة جَبَّارة، لكنها مع ذلك لا تستطيع معارضة الصهاينة. ولقد بَيَّن هذه الحقيقة وليام فولبرايت، رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأميركي، بقوله: " إن إسرائيل اليوم تسيطر على مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة". وبَيَّنها، أيضاً، جورج براون، رئيس أركان القوات المسلحة الأميركية السابق، حين قال: " يمكن أن نقول للإسرائيليين: إننا لا نستطيع أن نحصل على موافقة الكونجرس لتأييدكم فيما تريدون، فيقولون لنا: لا تقلقوا بالنسبة للكونجرس؛ فنحن نكفيكم إيَّاه. إن هؤلاء من بلد آخر، لكنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يقولون. إنهم - كما تعلمون - يملكون البنوك في هذا الوطن، كما يملكون الصحف". على أن كاتب هذه السطور يضيف إلى ذلك أنهم ليسوا مالكين للبنوك والصحف فحسب؛ بل إنهم ماهرون في استخدام ما يملكون لأغراضهم الشرِّيرة، وأنهم - إضافة إلى ذلك - يملكون صناعة السينما المُؤثِّرة، كما يملكون براعة التنظيم والتخطيط.

هناك مُؤمِّلون في أن يروا يوماً يَتحرَّر العالم فيه - وفي طليعة هذا العالم الشعب الأميركي - من إرادة الصهاينة، لكني لست من أولئك المُؤمِّلين في رؤية ذلك التحرُّر في المستقبل المنظور.

ما أَسرع الرجوع إلى مُستنقَعِ الخُضوع[1]!

كنت أظن أن حضوري ملتقى جمعية التاريخ والآثار لدول مجلس التعاون العربية في البحرين، ومن ثم الانطلاق إلى دبي لحضور مسابقة الشعر لطالبات كلية الشريعة واللغة العربية التي أقامها ويرعاها الشيخ الفاضل جمعة الماجد، سيبعدانني نوعاً ما عن خِضَم الغرق في بحر ما تعيشه أُمَّتنا من ذل وهوان.

لكني أدركت أني - كما يقول المثل الشبعي - " أنحش عن شعبا وشعبا تبرا لي". وإذا بي أجد نفسي تتأمل فيما تتناقله وسائل الإعلام المختلفة عن قضايا هذه الأمة، امتداداً من أفغانستان إلى فلسطين وما يَتعلَّق بهذه وتلك، مثل العراق والسودان، وأَجدني أَعود بالذاكرة التي ما برحت تتناوبها معاول الهدم إلى شيء مما سبق أن كتبته عن القَضيَّة الفلسطينية بالذات.

قبل ستة شهور فقط تناقلت وسائل الإعلام تصريحات لعدد من أركان السلطة الفلسطينية تنص بوضوح على أنه: لا تنازل عن وجوب انسحاب إسرائيل - دون ذكر أنها عدو محتل بطبيعة الحال - من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م بما فيها القدس الشرقية، ولا تنازل عن حق اللاجئين الفلسطينيين - وهو حق أَقرَّته الأمم المتحدة قبل أن تصادر قوتها قوة البطش الكبرى، وحق لم يعد زعيم عربي له مكانته يذكره -، ولا اعتراف بيهودية الدولة الإسرائيلية، وهذه اللاءات الثلاث هي أَقلُّ ما يمكن أن

---

(١) نُشِرت في صحيفة **الجزيرة** بتاريخ ١٩/ ٠٥/ ١٤٣١هـ الموافق ٠٣/ ٠٥/ ٢٠١٠م.

يطالب به أركان السلطة الفلسطينية بعد أن حُذِف من ميثاق منظمة التحرير ما حُذِف من أمور جوهرية، وآلت أمور المنطقة بعامة والأمور الفلسطينية بخاصة إلى ما آلت إليه.

وكان مما ذكرته في تلك الكتابة لاءات مؤتمر الخرطوم الثلاث المشهورة: وهي: لا مفاوضات مع الدولة الصهيونية المغتصبة لفلسطين، ولا اعتراف بشرعية وجودها على الأرض العربية، ولا سلام معها. وقلت: إن التمسُّك بتلك اللاءات ظَلَّ من الثوابت لدى أقطاب الزعماء العرب، الذين أصدروا ما قَرَّروه في ذلك المؤتمر عام ١٩٦٧م، لكن هذه اللاءات أُصِيبت واحدة بعد أخرى بهشاشة العظام إلى أن وافاها الأجل المحتوم في نهاية الأمر.

ومما ذكرته في تلك الكتابة، أيضاً، أنه إذا كان لغياب أولئك الأقطاب من زعماء العرب عن الساحة أثره السلبي في مسيرة القَضيَّة الفلسطينية فإن لاتِّفاقية كامب ديفيد أثرها الخطير جداً في تلك المسيرة؛ إذ استفحل داء هشاشة العظام في جسد أُمَّتنا. وسرعان ما انفرطت حَبَّات المسبحة بجهود أميركية متقنة الخداع. وإذا بأميركا تضيف نصراً آخر للصهاينة ملحقاً بما حَقَّقوه نتيجة تلك الاتِّفاقية؛ وذلك بعقد مؤتمر مدريد ليتفاوض العرب مع قادة الكيان الصهيوني في مدريد على أساس الأرض مقابل السلام دون ذكر لمسألة عودة اللاجئين. والمقصود بالأرض - بطبيعة الحال - الأرض التي احتلت عام ١٩٦٧م.

مما علمه المتابعون لمجريات القَضيَّة الفلسطينية حق العلم أن لاءات مؤتمر الخرطوم المشهورة تدلُّ على عظمة إرادة من أصدروها من قادة أُمَّتنا. وإني لمقتنع كلَّ الاقتناع بِأهمِّية قادة الشعوب - لو أرادوا - في قيادتنا للوصول إلى ما يُحقِّق آمالها. ولقد قلت في الكتابة المشار إليها: هل يثبت أركان السلطة الفلسطينية أنهم لن يتنازلوا عما صَرَّحوا به من

تَمسُّكهم باللاءات الثلاث التي ذكروها؟ وقلت: لمن أراد أن يحاول الإجابة عن هذا السؤال أن يَتأمَّل مسيرة تلك السلطة؛ بدءاً من انطلاقة كبرى الفصائل "فتح" عاصفةً ضد المحتلين الصهاينة، ومروراً بما حدث من وراء ظهر الوفد الفلسطيني في مؤتمر مدريد من توقيع على اتِّفاقية أوسلو التي كَبَّلت بعض بنودها حركتها المقاومة ليرى الجميع ما يحدث الآن على أرض الواقع من موقف تجاه أَيِّ عنصر مقاومة للاحتلال.

وكان مما أضافه أركان السلطة الفلسطينية إلى اللاءات الثلاث التي صَرَّحوا بها أنهم لن يعودوا إلى المفاوضات مع الكيان الصهيوني - وهي مفاوضات لا يستطيع أحد أن يتجاهل كونها لم تقد حتى الآن إلا إلى مزيد من التنازلات لصالح ذلك الكيان - إلا إذا أوقف ذلك الكيان مصادرة الأراضي وبناء المستعمرات (المستوطنات).

ما الذي حدث على أرض الواقع بعد تلك الإضافة من قِبَل السلطة؟ لقد تسارعت تَحدِّيات الكيان الصهيوني كما تسارعت إهاناته لهذه السلطة بخاصة والعرب بعامة. تسارع تهويد القدس؛ وهو أمر وضع أساسه هرتزل، ورَسَّخه بن جوريون، واستمر في تنفيذه المُتربِّعون على كراسي الحكم الصهيوني الآن معلنين أنه هدف لا تنازل عنه. وأعلن هؤلاء أن المسجد الإبراهيمي ومسجد بلال من التراث اليهودي، وأنه لا يحق للفلسطينيين ولا غيرهم التحدُّث عن القدس؛ إذ هي بكل تَحدٍّ وصلف مدينة يهودية عاصمة مُوحَّدة أبدية لدولتهم. وظَلَّ بناء المستعمرات (المستوطنات) متسارعاً. بل إن الصهاينة اتَّخذوا قراراً بترحيل عشرات الآلاف من الفلسطينيين من الضفة الغربية وشرعوا في ذلك الترحيل. وقد يكون هذا إيذاناً بما هو أَشدُّ وأَنكى وهو ترحيل الفلسطينيين الذين يعيشون في الأراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨م؛ وذلك لتصبح الدولة الصهيونية - كما يطالب به الصهاينة الآن - دولة يهودية بحتة.

أدرك غاية الإدراك أن ما يشير إليه بعض الخَدَّاعين، أو المُنخدِعين، من وجود خلاف بين الإدارة الأميركية الحالية والزعامة الصهيونية أمر ليس صحيحاً. ذلك أن الإدارات الأميركية المتعاقبة على الحكم الواقعة تحت رحمة الصهاينة المُتحكِّمين - بدرجة كبيرة - في اتِّخاذ القرار وفي توجيه الرأي العام، ظَلَّت مساندة للكيان الصهيوني في كل الجوانب وبمختلف الوسائل.

ما يتردد الآن في مختلف وسائل الإعلام هو أن السلطة الفلسطينية ستعود إلى المفاوضات العبثية مع الصهاينة بالرغم من استمرارهم ببناء المستعمرات؛ ولاسيما في القدس، وتهويد الأرض الفلسطينية. والتنازل التدريجي عن الحقوق الفلسطينية، والالتفاف حول ما يُصرَّح به من مواقف، أمور مما أدمن على ممارسته المتنفِّذون من الفلسطينيين بخاصة ومن العرب بعامة. لذلك ليس غريباً أن تنجح الإدارة الأميركية في التمويه - كعادتها - بأن تكون المفاوضات بين الجانبين الفلسطيني والصهيوني غير مباشرة؛ تحلية بضاعة. " ما انشقت مير هي تخرّ".

لا أجد ما أختم به هذه المقالة أنسب من عنوانها وهو: " ما أسرع الرجوع إلى مستنقع الخضوع". أَلا إلى الله تصير الأمور.